Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحياة العامة
في ظل الدولة العثمانية

المامة عامة موجزة(١) :

بدأ قيام الدولة العثمانية في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي على أنقاض الدولة السلجوقيه التركية في الأناضول وأخذت ستولي على أجزاء من الدولة البيزنطية واستمرت امارة تحيط بها الدول المجاوره مدة سبعين سنة فاضطرت ان تبقى دائما في حالة حشد واستعداد دائم للحرب واتخذت بروسة عاصمة لها ثم استولت على قطعة من الارض الاوروبية فحولت عاصمتها الى « أدرنة » واستولى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م على القسطنطينية التي عجز عن فتحها القواد الكبار من العرب وغيرهم ، ففتح بذلك أفقا جديدا لامبراطورية تركية واسعة فقد استطاع باستيلائه على مضيقي البوسفور والدردنيل أن يثبت قدميه في كل من آسيا وأوروبا واستطاع خلفاؤه من بعده أن يوسعوا امبراطوريتهم بحيث أصبحت تضم البلاد العربية وجزءا واسعا من القارة الاوروبية ، ونمكن قائده البحري خير الدين باربا روس باشا هو وأخوه من أن يستوليا بفضل الجيش والاسطول التركيين القويين على الجزائر وأن يسيطرا على البحر المتوسط ثم استولى خير الدين على جزء كبير من تونس . وجاء سنان باشا الألباني فأكمل الاستيلاء على تونس وأرسل في سنة ١٥٦٨ م من مصر وكان يحكمها حينئذ حملة الى اليمن استكملت الاستيلاء عليه حتى وصلت الى رأس الخليج العربي ولم يكن الاتراك قبله قد استولوا الا على عدن ومسقط .

واستطاع سنان باشا أن يطرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس الغرب وأن يستولي عليها ويستكمل شمال افريقيا ما عدا القسم المرتفع من مراكش المسمى موريتانيا ، على أن طرابلس وتونس والجزائر بقيت شبه مستقلة وكانت تتبع الباب العالي اسماً ، وكان الحكم فيها وراثياً عسكرياً فردياً يدلل فيه الحاكم على خضوعه للسلطان العثماني بارسال هدية اليه تقوم مقام الجزية وقد أصبحت سلطة

---

(١) ملخصة عن تاريخ العرب لفيليب حتي مع بعض تعليقات واستشهادات من الشعر في هذا العصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكام شمال افريقيا بعد ذلك أكبر من سلطه حكام سورية ومصر حين ضعف الاسطول العثماني في البحر المتوسط .

وكانت أعمال القرصنة تدر أرباحاً كبيره على حكومات شمال افريقيا وشعبها وكان القراصنة فيها يشتركون مع الاسطول التركي في معاركه ضد أعدائه وكثيرا ما كان يعمل معهم منفيون من اسبانيا ، وقد بلغت القرصنة أوجها في النصف الاول من القرن السابع عشر . ثم كافحتها كل من انجلترا وفرنسا وأجبرتاها على عدم التعرض لهما على أن الدول الصغرى ، ومنها الولايات المتحدة حينئذ ، استمرت تدفع الجزية لها لتسمح لسفنها بالمرور حتى استولت فرنسا على الجزائر فتحولت القرصنة من الافراد اليها والى الدول الاستعمارية الاخرى التي أخذت تستعمر الشعوب فجعلت القرصنة عامة تشمل البر والبحر وجميع الشعوب المستضعفة .

تمت أكثر الفتوحات في شمال افريقيا في عهد سليمان الاول ابن سليم وبلغت الدولة العثمانية أوجها في عهده فأخضع أكثر بلاد المجر (هونغاريا) وحاصر فيينا وافتتح رودس وامتدت سلطته من بودابست على الدانوب الى بغداد ومن شبه جزيرة القرم شمالا حتى شلال النيل الاول جنوبا .

وتولى السلطان مراد الرابع السلطنة سنة ١٠٣٢ هـ ثم غزا بلاد فارس سنة ١٠٤٤ هـ زمن الشاه عباس وفتح « روان » وفي سنة ١٠٤٨ هـ فتح بغداد بعد حصار ٤٠ يوما ، وقتل عشرين ألفاً من الفرس .

وقال المحبّي (خلاصة الاثر ، ج ٤ ، ص ٣٣٩) : « أكثر الناس من نظم الشعر والتواريخ لفتحها ومن ذلك قول تاج الدين المالكي :

خليفةُ الله مرادٌ غزا ... قلعةَ بغدادَ فأرداها
وعندما حاصرها جيشه ... اندكّ للأسفل أعلاها
وأصبح الشاهُ ذبيحاً كما ... أُخبر عن كثرة قتلاها
هذا اختصارُ القول فيها فإنْ ... قيل لقد اجملتَ ذكراها
فلتشرحَنْ فعل مرادٍ بها ... مؤرخا ، قد ذُبِحَ الشاها

ووقع في زمنه سيل كبير أغرق مكة وهدم الكعبة فعُدّ من مآثره بناؤها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان عاشرَ من بناها فأرّخ دلك أحدهم نثرا بقوله : « رفع الله قواعد البيت » • وقال أحدهم :

وخاتمُهمْ من آلِ عثمانَ بدرُهمْ
مُرادُ المَعالي أسعد الله شارقَهْ

« خلاصة الاثر ٤ : ٣٤٠ ــ ٣٤١ »

تولى بعده أخوه السلطان ابراهيم بن أحمد سنه ١٠٤٤ هـ وفي عهده فتحت قلعة القوزاق سنة ١٠٥ هـ وقلعة خانية بجزيرة أقريطش (كريت) دون قلعه (فندبة) الحصينة • وقد مدحه الأمير منجك صديق ابن النقيب فقال :

لو كنت أطمعُ بالمنام نوهتُما
لسألتُ طيفكِ أن يزور تكرّما

* * *

ملكٌ من الإيمان جرّد صارما بالحق حتى الكفرُ أصبح مسلما
لو شاهد المطرودُ[1] سطوة بأسه في صلب آدم للسجود تقدّما
العدل أخرسَ كان قبل زمانه أذنت له الأيام أن ينكلما
لم تخطُ آسادُ الفلا في عهده بين الشقائق خِيفةً أن تتهما
عقد المُثار على العُداة سحائباً لولا الحيا لسقى العِدا منها دما
ودعت ظُباه الطيرَ حتى إنّه قد كان يُسقط فرخُه نسرَ السما

« خلاصة الاثر ١ : ١٤ »

* * *

وعزل ابراهيم فتولى مكانه ابنه محمد الرابع وهو صغير السن فتهاون به رؤساء الدولة واضطربت الامور حتى تولى الصدارة الوزير محمد باشا كوبرلي فقضى على الفساد الداخلي ثم افتتح قلعة (ينوه) وبعض القلاع الاخرى •

(١) المطرود : ابليس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقامت ثورة في بلاد الشام خلال عبابه بزعامة والي حلب ووالي دمشق وجمعٍ كبير من العسكر فقتل الثائرون مع من ناصرهم من سكان البلاد .

وخلف محمد كوبرلي ابنه أحمد كوبرلي وكان عهده حتى أواسط مدته خير العهود رونقاً وحفظاً للدين وتنفيذا لاحكام الشريعه . وقد أسهم في الفتوح وهزم بوار المجر .

وتمّ على يديه فتح قلعة (قندية) بعد حصار سنتين ، صلحا سنة ١٠٨٠ هـ فسلّمها اليه قائدها « موروزفين » .

« خلاصة الاثر ٤ : ٣١١ ، و ١ : ٣٥٣ »

وقد عظم الفرح بهذا الفتح وعمت البشائر ونظمت فيه التواريخ ، ومدحه ابن النقيب (ت ١٠٨١ هـ) بقصيدة مطلعها :

ما آل برمـــك في ذرا بغـــداد يوم الفخـار ولا بنـو عَبّاد

« ديوان ابن النقيب ٩٠ ــ ٩٣ »

كانت الامبراطورية العثمانية أطول الدول الاسلامية عمرا ، امتد حكمها من سنة ١٣٠٠ م حتى سنة ١٩٢٢ م على تفاوت في الضعف والقوة والسعة والضبق بين مختلف عهودها .

قام نظام العثمانيين على سلطة الأسره وعلى القوة العسكرية وكان الهدف الرئيسي من الحكم مصلحة السلطان ومن يليه من الحكام وليس مصلحة الرعايا التي كانت تضم قوميات وبلادا مختلفة وأديانا متعدده وثقافات متباينة متفاوتة ولا يجمع بينها الا الخضوع لقوة السيف . وكان الفلاحون الاتراك أنفسهم معدودين في جمله الرعايا فقد كانوا يخضعون لافراد الطبقة الحاكمة ، وكان الاتراك أقلية بالنسبة الى مجموعة الشعوب التي سيطروا عليها ، ولم يحاولوا أن يستعمروا البلاد العربية أو يحلوا جاليات تركية فيها الا في بدء القرن العشرين حين قاموا بمحاولة التتريك على أساس نقل أسر عربية الى الاناضول وأسر تركية الى سورية وغيرها . وكانوا يسمحون لانفسهم بالزواج من غير المسلمات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويستخدمون في أعمال الحكومة شبانا غير مسلمين وكثيرا ما كان هؤلاء يدخلون في الاسلام مجددين بذلك حيوية الدم التركي عن طريق التمازج المستمر ، وقد وصل كثير من الجراكسة واليونان والألبانيين والسلاف والطليان والأرمن الى أعلى مراكز الدولة ومنها الصدارة العظمى (أي رئاسة الوزراء) .

حملت هذه الدولة بذور الانحلال في طياتها لانها تكونت من خليط غير متجانس لا يمكن أن يثبت أمام دول مناهضة مجاورة تسودها قومية واحدة . ومما زاد في ضعفها نظام الملة ، وهو ترك الطوائف الدينية تتمتع بقدر كاف من الاستقلال الذاتي حاولت فيه الدولة العثمانية ان تحلّ مشكلة الأقليات .

ومن أسباب الضعف أيضا تركيز السلطة في يد رجل واحد هو السلطان الخليفة[1] ، وعدم وجود نظام دقيق للاستخلاف فكثيرا ما كان أبناء السلاطين يقتل بعضهم بعضا أو يدسّ بعضهم لبعض في سبيل السلطة .

ومن أسباب الضعف عدم تجديد النظام العسكري الانكشاري فقد كان في أول الدولة رائعا وكان له الفضل في النصر ، ولكنه فسد بعد وأصبح علة ضعفها وانكسارها لأن السلاطين لم يراعوا عوامل الزمن فيجدّدوه الا حين لم يعد ينفع العلاج زمن السلطان محمود الثاني ، بسبب ضعف الدولة ، وقد انتهز محمد علي باشا حاكم مصر فرصة محاولة التجديد ليوجّه الى الامبراطورية ضربة قاصمة كادت تقضي عليها لولا وقوف انجلترا بجانبها .

وقف سيل الفتح التركي منذ خيبة الجيش في الاستيلاء على فيينا سنة ١٦٨٣ م وأصبح هم الاتراك أن يجدوا الوسيلة للاحتفاظ بما فتحوه وتحولوا الى مدافعين .

ومن أسباب الضعف نظام الجباية الذي كان يضمّن لاناس يستغلّون الشعب ولم يكن ليهتم السلطان أو الحكام الا بالحصول على أكبر قدر من المال ولذلك كان ملتزمو الضرائب للسلطان أو للوالي يفتنّون في فرضها على الرعايا ، وفي ابتزازهم .

---

(١) لم يطلق على السلطان لقب الخليفة الا في عهد متأخر في القرن التاسع عشر الميلادي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال الغزي : « ولما بلغ الإمامَ عليَّ بن محمد المقدسي (٨٥٦ ــ ٩٣٤ هـ) ان العثمانيين صربوا الجزية حتى على المومسات تنخّع الدم من كبده ، وتمنى الموت ، للقهر الذي أصابه وللغيرة على دين الاسلام وتغيّر الاحكام وقال في دخول السلطان سليم دمشق هذه الابيات :

ليت شعري من على الشام دعا ... بدعاء خالص قد سمعا

فكساه ظلمة مع وحشة ... فهي تبكينا ونبكيها معا

قد دعا من مسّه الضُرُّ من الظلم والجور اللذين اجتمعا

فعلا السحبَ دُعا فانبعثت ... غارةُ الله بسا قد وفعا

فأصاب الشام ما حلَّ بها ... سُنةُ الله التي قد أبدعا

« الكواكب السائرة ج ٢ ، ص ١٩٣ »

فالغزي يأسى هنا لما أصاب الشام من بلاء بسيطرة العثمانيين عليها وارهاقهم أهلها بالمظالم . والابيات وان كان ظاهرها التشكي من أهل البلد أنفسهم وان ما حل بها هو نتيجة الفساد فيها واستجابة من الله للمظلوم من أهلها . الا أنها تتضمن التشكي من الدولة العثمانية التي أوصلت الامة المحكومة الى هذه الحال من البؤس ، وهي تتضمن ضرورة اصلاح الناس أنفسهم وأخلاقهم وضرورة تضامنهم ليرتفع عنهم غضب الله وأذى الظالم وهي ترتدي الطابع المستسلم للاقدار غير أنها تدعو دعوة مستترة الى عدم الرضا بالظلم وفيها تكرار لا مبرر له الا تأكيد معنى الظلم في أذهان الناس وفيها طلاوة تعبير وموسيقا جميلة كقوله : فهي تبكينا ونبكيها معا ، ولكن فيها كذلك تهربا من مجابهة المسؤولية ومن التخطيط لتغيير الحال .

ومن أسباب الضعف أيضا نظام الاقطاع الذي جعل أصحاب الارض الكبار ينصرفون عن الإعداد للحرب الى الاستمتاع بما تدرّ عليهم أراضيهم الواسعة وثرواتهم الطائلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويضاف الى الاسباب السابقه طمع الدول الاوروبية القوية في أن تحصل لدى تركيا على مناطق نفوذ ، وذلك حين ضعفت الدولة العثمانية وأصبحت تسمى ، سخريةً ، بالرجل المريض . ولم يكن يحفظ الدوله من الانهيار التام الا تحاسد القوى الطامعة فيها واختلافها على تقسيم الغنيمة وعدم اتفاقها على عمل موحّد ضدّها ، فلمّا قامت الحرب العالمية الاولى وانتهت بهزيمة الدولة وحلفائها كان في ذلك نهاية امبراطوريتها الشاسعة وافتصارها باسم الجمهوريه التركية على الاناضول وجزء صغير جدا من الساحل الاوروبي .

وقد قلنا في مقدّمة الكتاب أن العهد العثماني ينقسم الى ثلاثة أدوار : دور القوة ، ودور التوازن والضعف ، ودور الانحلال ، وعينا بدايات هذه الادوار ، ونهاياتها وقلنا بأن السلطان سليمان القانوني قام باصلاحات هامة في عهده سمي من أجلها بالقانوني وأفادت البلاد كثيرا ولا سيما في ناحية العلوم والمدارس وتخريج موظفين للدولة وعلماء ؛ ولكنّها فسدت بعد كما فسد كل شيء غيرها . فليرجع الى المقدمة لتذكّر ذلك .

وننبّه هنا الى أن الرحلة في طلب العلم قد استمرت في هذا العهد ، كما استمرت وحدة الحركة الفكرية فلم تظهر فيها أي نزعة إقليمية أو تفرقة في تحصيل العلم بين قطر وآخر .

حال الشعر في العصر العثماني ومدى الاهتمام به

كان بعض شعراء العصر العثماني المتفوقين على أقرانهم يرون أنهم خبر ممكّن تقدمهم من الشعراء الفحول برغم تأخر زمنهم وبرغم فقد الكرام من العظماء الذين يهبون الجوائز الكبيره ويشجّعون الأدب ويتذوقونه ويشاركون فيه

يقول الشهاب الخفاجي في مقدمته لـ « ريحانة الألباء » يفضل معاصريه على المتقدمين في الشعر ويعتذر لتقصير بعضهم (ص ٦) :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« والرؤساء شعراء لا ينظمون ولا ينثرون ، وما فيهم من صفات الشعراء الا أنهم يقولون ما لا يفعلون ، واذا كذب مادحٌ أحدهم اهتزّ وطرب ، وجازى من سراب وعده بكذب على كذب ، وبالوعد الفطير لا يُخمّر الحصير .

* وبأحسنتَ لا يباع التسعير *

وبرعد الوعد ، لا يسقى غرس الحمد

فلا تلوموه في وعد يردّده

في وقت مدحي له علّمته الكذبا

ومع هذا فكم هبت لهم أنفاس معطرة بالنجاح ، مزرية في وقتها بأنفاس الصبا في الصباح ، يهزّ لها السماحُ هيف معاطفه ، وينشر تحت أقدامها الزمانُ بساط عواطفه ، تتمسك كفّ الشّمال بأذيالها ، وتتنفّأ العشاق في هجير الأشواق ضافي ظلالها ، وترد صافي زلالها ، من كل حديث تليد وطارف له وشي على كاهل المجد ولا كوشي المطارف ، تزهو به الطروس على صفحات الخدود المحسّنات بالسوالف . في كل ورقة منها خمائل ، تسوغ مياه فصاحتها في لهوات الجداول .

تكاد يدي تندى إذا ما لمستُها

ويَنبُتُ في أطرافها الورَقُ الخُضْرُ

من كل من ألحق المتأخر بالمتقدم في تطبيق مفاصل معانيه ، وإخراج مخبآت عطره من جَوْنة مَبانيه ، وإنْ تأخر عصره فلا بأس ، في تأخر النتيجة عن القياس والخدم تتقدم بين يدي السادة ، والسّنن أمرِ بتقديمها على الفروض في العبادة ، وتقدّم الآحاد ، يرقى مرتبة الاعداد .

أو ما ترى أن النبي محمدا فاق البرية وهو آخر مرسل

ا فيا أدلاء الهدى إني آنست من جانب الطور نارا بها تهتدون ، أو آتيكم بشهابٍ قَبسٍ لعلكم تصطلون فان لم يترك الأوّل شيئا للآخر ، فخير من الكثير الغائب القليل الحاضر ... » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا الكلام يدلّ على إعجاب بالنفس وغرور ، ولكنّ قائله أديب مُجيد شعراً ونثراً على الحقيقه وفق دوق عصره • ولقد استمرّ الاهسام بالشعر في هذا العهد حفظا ومذاكره وانشادا ومدحا للعظماء أحيانا في جميع أصقاع المِنطقة العربية •

ولأحمد البربير الدمياطي المولد البروتي الاصل الدمشقي الوفاة (ت ١١٢٦ هـ = ١٨١٤ م) كلام لطيف في الثقافة الضرورية للشاعر وفي علو جاهه : « ••• ان الانسان لا يستحق الوصف بالشاعر ، الموجب له العزّ والترف ، إلاّ إذا احتوى من كل علم من العلوم على طرف ، وذلك لان الشاعر من ينظم في كل فن ، ولا ينظم في كل فن الا من دخل حانات العلوم فشرب كأسا من كل دنّ » • (أسـامة العانوتي ، ص ٥٣ • الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر) •

وكان الشعراء في هذا العهد ، كما كانوا في العهد المملوكي ، كثيرين • وكل من الريحانة للخفاجي ، ونفحة الريحانة وخلاصة الاثر للمحبي ، وسلك الدرر للمرادي ، وحلية البشر للبيطار ، يطالعنا باسماء كثيرة لهم تعد بالعشرات وأحيانا بالمئـات •

وترجع كثرتهم الى ما كان للشاعر من جاه في مجتمعه ولما كان يناله من خير أحيانا لدى حكام البلاد وأعيانها ، والى سحر هذا الفن في نفسه وفي نفوس الناس حوله • وكان نظم الشعر زينة لصاحبه وهواية محبّبة سائدة لا يُعفّي عليها الزمن ولا تضعضها الأحداث •

وكان الشعر ضرورة لازبة للانسان المثقف ، فلا بد من أن يشارك بنصيب من الشعر قلّ أو كثُر ، ولا بدّ من أن يسرن عليه حتى يسهل عليه النظم ، وقد يُضطرّ الى مطارحه مع أحد أصدقائه أو معارفه أو أنداده أو خصومه •

ولعلّ الذي كان يشجّع عليه سهولةُ كثير مما كان يقال وسطحيته •

على أنّ هذا العهد لم يعدم شعراء كانوا قمّة في حياتهم بالاضافة الى غيرهم ، كابن النقيب ومنجك في القرن الحادي عشر الهجري •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان أكثر السعراء الهواة يقولون الشعر مع انصرافهم الى حرفهم العلمية أو العملية الصناعية فلم يكن ينتظر منهم أن يبدعوا أو يحلّقوا • ومن انصرف منهم الى الشعر لغناه ورفعه مكانته الاجتماعية ، كابن النقيب فلا يعدّ شاعرا محترفا بل هاويا مجيدا بالقياس الى عصره •

وكانوا يكثرون من نظم المقطوعات في فكرة عابرة أو عاطفة طارئة أو بارقة خيال أو نكتة فاحشة أو ضحكة مُجلجِلة مستجيبين الى رغبتهم في النظم دون إرهاق أنفسهم •

وكان الى جانب المقطوعات قصائدُ طويلة في المدح ، والمدح النبوي ، والغزل ، والرثاء وغير ذلك من الموضوعات •

وكان لغياب العنصر العربي عن الحكم أثر في ضعف الشعر فلم يكن الحاكم ناقدا ناميَ الذوق الادبي يستطيع أن يفرق بين جيد الشعر ورديئه الا اذا كان قد تثقف ثقافة عربية أدبية جيدة • وهذا لم يكن يتاح الا قليلا •

ولمّا كان أكثر الشعراء كما قلنا يحترفون عملا آخر فهُم إمّا عالم تثقف ثقافة أدبية فلم يسلَم شعره من الجفاف العلمي الذي عرف به العلماء الشعراء وإما صانعٌ ضئيل الثقافة يتصف شعره بفقر المعاني والصور وهلهلة الأسلوب واللغة وخشونة المشاعر •

ووُجد أحيانا بعض شعراء لا يأنفون من ذلّ السؤال بشكل مُزْرٍ • يقول نصر الله الطرابلسي الحلبي (مما أورده الطباخ في أعلام النبلاء) :

ولم يبــق الا ماءُ وجــهٍ أرقتُه وحسبي بشعري شاهدا ومترجما

ولا يزال ما بين أيدينا من مطبوع الشعر العثماني قليلا وأكثر ما خلّفه شعراء هذا العهد وأدباؤه مخطوط في مكتبات الغرب أو الشرق وبعضه ضائع أو مفقود • ولذلك قد تكون أحكامنا عليه قاصرة تقبل النقد والتغيير •

ومصادرنا التي نستقي منها نصوصه وأحكامنا عليه هي دواوين الشــعراء وكتب الادباء التي طبعت ، وكتب التاريخ أو الموسوعات أو التراجم •

ونجد أحيانا لمعات مشرقة لدى بعض الشعراء سنشير الى بعضها في حينه • ومن عندهم أمثال هذه اللمعات منجك وابن النقيب والخفاجي ، الذين يمكن أن يعدّوا بمجموع شعرهم لامعين بين أقرانهم •

وكان كثيرون من أدباء هذا العهد يجمعون بين الشعر والنثر كأدباء العهد المملوكي قبلهم ، وينظمون في الاغراض المختلفة ويفندون بالشعراء السابقين •

ولم يكتفوا بالاغراض التقليدية ، بل اهتموا بالألغاز والأحاجي والمعمّيات • وانتشر بينهم فن التاريخ بحروف الأبجدية شعرا ونثرا •

وكذلك نظموا في الفنون الشعرية المستحدثة التي أشار اليها المحبي وهو يترجم للشاعر الحريري رجب بن حجازي الجسمي (وهو شاعر زجال توفي في مدينة حلب سنه ١١٠١ هـ) فقال :

« وله كثير من الازجال والرباعيات والمواليا ، والموشحات والتواريخ ، والأحاجي » •

وقد أشار في تتمة هذا الكلام الى طابع اتّسم به هذا الشاعر وكان سمة لكثيرين من شعراء هذا العهد وهو سهولة النظم فنراه يقول :

« ••• وكل ذلك كان يقع له من غير تكلف رويّة ، بحيث انه في ساعة واحدة ينظم مئة بيت ومثلها قطعةً أو قطعتين من الزجل والموشح ، وقس على ذلك البواقي » •

« المحبي ، خلاصة الاثر ، ج٢ ، ص ١٦٠ »

ويرتبط بسهولة النظم وسرعته سهولة الألفاظ والتراكيب وسطحية المعاني وقرب الصور والاعتماد على محفوظات الشاعر من النثر والشعر •

وكانت زيادة التصنع في الفنون والاغراض المختلفة من سمات هذا الشعر • ولكن بعض الشعراء كابن النقيب ومنجك كانوا يخالفون التيارات العامة السائدة أحيانا •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما بدا لنا بحسب مطالعتنا حتى الآن هو أنّ الدورين الاول والثاني من هذا العهد كانا أكثر وأحسن إنتاجا من العهد المملوكي الثاني الذي بدا لنا فيه انتاج الشعر ضئيلا سيئا . فإما أن يكون ذلك من قصور مطالعاتنا في العهد المملوكي المذكور وعدم استيفاء المراجع ونقصها ، وإمّا أن يكون من ضياع كثير من آثار الشعر فيه ، أو من قصور الذين ترجموا للادباء فيه فلم يذكروا في تراجمهم مقادير كافية من شعرهم الجيد في مختلف الموضوعات من أمثال ابن حجر العسقلاني في كتابه « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » والسخاوي في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » والغزي في القسم الأوّل من كتابه « الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة » . فقد تجلّى لنا أنّ المترجِم اذا كان أديبا دواقة فإنّه يُعنى بالنصوص المستجادة للشاعر في مختلف الموضوعات أثناء ترجمته وذلك ما فعله كلٌّ من الخفاجي في كتابه « ريحانة الألباء » والمحبّي في « نفحة الريحانة » وفي « ذيل النفحة » .

وهذا ما كان قد فعله الأصفهاني في كتابه « الخريدة » حين ترجم لشعراء عصره .

وقد يكون فرط الضعف الذي ظهر لنا في العهد المملوكي الجركسي راجعاً الى أنّ الأمة قد خارت قواها بعد الحربين الكاسحتين الصليبية والتتارية ، وبعد المصائب الطبيعية الكثيرة المتوالية من زلازل وطواعين وأوبئة ومجاعات ، فاستسلمت الى النوم .

ومن أمثله الشعر الضعيف في هذا العهد قول حسين الأدكاوي يرثي الشيخ العشماوي :

يا أمّة الإسلام يا أهلَ الهدى	علماء منهم مبتدى أو منتهى
قد مات عشماوثكم نبّأ لمن	بالمجد عن ثوب التأسّف ينتهى
مَنْ بعده للترمذيّ ومسلمٍ	أو للبخاريّ الصحيح الأوجه
فالشافعي نادى لبوم مصابه	أوّاه ضاع مذاهبي وتفقّهي

« عجائب الآثار في التراجم والاخبار للجبرتي ج١ ، ص ١٩٦ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهذا النظم ضعيف المعنى بعيد عن روح الشعر الفني المؤثر ركيك الاسلوب مهلهل التراكيب يبدو على ناظمه فقدانه الموهبة التعرية ففدانا كلبا ، ومحاولته مع ذلك أن ينظم لمرضي تطلعه فكلف نفسه فوق طاقتها .

ولم نقتصر ضعف هذا النعر على معانيه وأجبله وعاطفته والنفحه الشعرية فيه بل نعدّى ذلك الى التركيب أيضا فقد أهمل الناظم حرف العطف وتكرار حرف النداء قبل الشطر الثاني من البيت الاول ، ورصف الالفاظ في البيت الثاني بكيفية إقامة الوزن دون رابطة ظاهرة بينها وقد زاد اللام حشوا في البيت الرابع .

ومن أمثلة الشعر الضعيف كذلك قول الامير منجك :

ذهب الشّراع وضلّت المُلاح في جُنح ليل ما لذاك صَباحُ

وقولُ الشاهيني :

أدركتُ ما لا سوّلته شبيبتي وفعلتُ ما لا ظنّه شيطاني

« خلاصة الاثر للمحبي ، ج٤ ، ٤١٤ ، و ج١ ، ٢١٢ »

فالمُلاح جمع مَلاح لم ترد في لغة العرب ، ودخول لا النافية على الفعل الماضي لم ترد في لغة العرب ، ودخول لا النافية على الفعل الماضي لم ترد الا في صيغة الدعاء مثل : « لا أراك الله مكروها » .

ولكن الشاعرين لم يهتما بصحة الأداء النحوي واللغوي .

وتظهر الركاكة البالغة في بعض هذا الشعر . فهذا شاكر العمري الشاعر الناثر (ت ١١٩٤ هـ) يقول في مدح رجل من آل المرادي :

فكأن الزهور فيها استعارت
عَرْف خِيم الهُمام ، نجلِ المُرادي
وكأنّ الطيورَ تُملي علينا
وصف زاكي النجار سامي العِمادِ

« المرادي ، سلك الدرر ، ج٢ ، ص ١٨٣ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ذكر من مشاكل هذا العهد الأدبية الرئيسية مشكلة الازدواج اللغوي فلغة الناس العامية في واد ولغة الشاعر الثقافية في واد آخر ولا يستطيع الجمهور أن يفهمها • وهذا الازدواج اللغوي لا يقتصر على المفردات ولو أنـه اقتصر عليها لكان الأمر سهلا ولكنه يتصل أيضا بقواعد النحو الاساسية وبالمادة اللغوية من حيث المفردات والتراكيب •

وهذه المشكلة بدأت مع بدايه اختلاط العرب بالاعاجم وتكوّن اللغة العامية شيئا فشيئا ، وأخذت تستفحل مع تقدم الزمن وتظهر آثارها في لغة الشعر وتراكيبه • وهذه الامثلة من الشعر الضعيف يقابلها أمثلة كثيرة من الشعر الذي يقارب أحيانا مرتبة الإبداع وأحيانا يكون جيّدا لا ينحدر بحيث يعدّ ساقطا • وسنرى بعض هذه الامثلة ونحن نتحدّث عن بعض موضوعات الشعر •

شعر النضال في العهد العثماني
ومنه المدح البطولي

نميّز في هذا العهد ثلاثة أنواع من المدح : الاول مدح السلاطين أو الوزراء أو القواد بمناسبة انتصاراتهم وما يلحق به من تهنئة ونحوها ، والثاني المديح النبوي وما يلحق به ، والثالث المديح الذاتي للعظماء والأصحاب والأقرباء :

أ ــ مدح السلاطين والوزراء والقواد بالانتصارات الحربية وشبهها :

لم نجعل هذا اللون من المدح أدب نضال وذلك لأنّه يتحدث عن انتصارات هجومية لا انتصارات دفاعية الغرض منها تحرير البلاد كما كانت الحال في الحروب الصليبية والمغولية • ولكن في هذا المدح لونا من أدب الحماسة والحديث عن الحروب ولذلك أفردناه وحده وألحقنا به بعض الشعر الذي يصوّر كفاح الشعب ضد والٍ ظالم يستبدّ به فيثور عليه ويحاربه وقد ينتصر عليه فيطرده ويضطر السلطان الى عزله ، وهذا الجزء الملحق هو في حقيقته أدب نضال شعبي يصوّر لنا أنّ الشعب لا تخمد فيه الحياة وأنّه مهما صبر على الظالمين فلا بدّ له يوما من أن يزيحهم أو يقضي عليهم •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد ابتعد الشعب العربي عن شؤون الحرب والسياسة أو أُبعد ولكنّ أصالته الحربية حفظت فيه الإعجاب بالقوة والرغبة بالاتصاف بها ، وحفظت لشعرائه الإشادة بها والإعجاب بالأبطال ، ولم تمت فيه روح الحماسة ولكنها نامت أو تخدّرت .

يقولُ عبد الرحيم العباسي (٨٦٧ ــ ٩٦٣ هـ) الشاعر المصري في وصف الحرب :

يعقد النقعُ فوقها سحُبا كالليل فيه السيوف أضحت نجوما
ومتى ما رأت سوادَ شياطـ ـنِ بُغاةِ الحروب عادت رُجوما

« الريحانة ، ج٢ ، ص ٦٢ »

والذي يعنينا من هذين البيتين هو بقاء الروح الحماسية في الشعب العربي وفي شعرائه . أما معناهما والصورتان فيهما وصياغتهما ففديمة تجري على الأسلوب التقليدي القديم وقد استمدّ الشاعر المعنى والصورتين من شعر بشّار ابن برد ومن القرآن .

استقى صورة الليل والنجوم في تشبيه غبار الحرب والسيوف من قول بشّار المشهور :

كأنّ غبارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبه

واقتبس صورة الشياطين والرجوم من الآية : « وجعلناها رجوما للشياطين » .

ومن مديح منجك (١٠٠٧ ــ ١٠٨٠ هـ) للسلطان إبراهيم في ميميّته حين انتصر على أعدائه بحرا وبرا :

لو كنت أطمع بالمنام توهّما لسألت طيفَكَ أن يزور تكرما
حاشا صُدودكَ ان تُذمّ فإنّها تحلو لدي وان أسفّت علقما
عذّبْ فؤادي بالذي تختارُه لو كنتُ منسيّا تركتُ وانّما

• • • •

لو بثّ أشكو ظلمه لشكونه لملك هذا الدهر أسمى من سما

• • • •

قد جهّز السفنَ التي لو صادمت رضوى بأيسر لمحة لتهدّما

« خلاصة الاثر ١ : ١٤ »

• • • •

فهنا نرى نمطاً من مدح العظماء طمعاً في الجائزة • وهو يجري فيه على سنه القدماء من حيث البدء بالغزل ويتذلّل في غزله لحبيبه مظهرا الثبات على حبه ويحسن التخلّص الى السلطان التركي الممدوح ويمدحه بالسمو على جميع معاصريه وبتجهيزه الأسطول القوي لحرب أعدائه •

وقال ابن النقيب يمدح الصدر الاعظم أحمد كوبرلي باشا فاتح جزيرة كريت ويخلّد فتحه العظيم • وكانت هذه الجزيرة تابعة لجمهورية البندقيه فاستطاع هذا الباشا أن يستولي على عاصمتها « قنديه » بعد حصار سنتين واستسلام قائد حاميتها (مورو زفين) وهي قصيدة المدح الوحيدة في السلاطين في ديوانه .

ما آل برمك في ذرا بغداد يوم الفخار ولا بنو عباد
يوما بأوقعَ في النفوس مَفاخرا ممّا لكم من سؤدُدٍ وسَداد
حلّيتمُ جيدَ الزمان بدولة حلّت محلّ الروح في الاجساد
جلّ المهيمن كم أتاح لذا الورى منها جميلَ عوارفٍ وأياد
إيهٍ بعيشك يا زمانُ فلا تني أبدا بنشر مَحاسن الأمجاد
فتحوا بقنديةٍ مَعاقل أُرتجتْ قِدما على الأمراء والأجناد
وافى لها الصدرُ الرفيعُ جنابُه عَلَمُ الغزاة ومُكمِدُ الحساد
وله بدين الحقّ صولةُ ناصح دكّ الغزاةُ بها ذُرا الأطواد
تروي له الأيامُ طِيبَ مَفاخر ومآثرٍ عزّت على الأنداد
أنتم بني العلياء قطبُ مَدارها يوم الفَخار وموئلُ القصاد
أشْفعتمُ شرَف الجهاد بمقصِد أسنى ومسعاةٍ لخير مَفاد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحللتمُ مغنى دمشقَ فأصبحت أيامُها تزهو على الأعياد
بلدٌ بها للأنبياء مَراقدٌ وبها حِمى الأبدال والأوْتاد
وبقيتمُ ظلّ البلاد وأهلِها ما لاح برْقٌ أو ترنّمَ شاد

« ديوان ابن النقيب ٩٠ ــ ٩٣ »

يوازن ابن النقيب في هذه الابيات بين الممدوح وقومه وبين بني برمك وبني عباد لنخلص الى أنّ الممدوح وقومه أفضل ، ويذكر مآثر الممدوح وقومه الترك وأمجادهم وفتحهم فديه ، ويثني على جهادهم ويمتدح اخلاصهم لدينهم ويبدي سروره بحلولهم دمشق دون أن يعتبرهم غزاة محتلين ، ويرى أن أيامها أصبحت أعيادا بهم ويبدي اعتقاده بالصوفيه والصوفيين حين يجعل دمشق حِمى الأبْدال والأوتاد ، وهما رتبتان صوفيتان ، ويدعو للترك بالبقاء فيها . وذلك كله في أسلوب واضح سهل فصيح صحيح قوي فخم .

وقال عبد الرحمن البهلول (ت ١١٦٣ هـ) في حادثة حسين باشا قصيدة مطوّلة اخترنا منها الأبيات التالية :

« وتتلخص الحادثة كما وصفها رسلان بن يحيى القاري في رسالته عن (الوزراء الذين حكموا دمشق) في أنّ (حسين باشا دخل الشام في شهر جمادى الثاني /١١٥١ هـ/ وكان رجلا من الخوارج وأراد أن يظلم فما قدر . وسكّرت (أغلقت) الشام ودام القتل بينه وبين أهل البلد مدة من الايام ، وقتل من عسكره خلق كثير ، فللّه عسكر الشام وما فعل . دخلوا الى القلعة ، ورَموا بالمدافع على السراية (دار الحكومة) ، فهدموا بعضها ، فلما نظر حسين باشا الى ما حلّ به من البلاء والنكير داخله الخوف والفزع ، وخرج في تلك الليلة على عجَل ، وقد كفّ الله شرّه عن الشام) » .

وما أجمله القاري فصلّه البهلول في قصيدته وأرّخ للواقعة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأبيـــات المختـــارة :

صـــبراً لحكـــم قضـــاء في الأنـــام جـــرى
به دمُ الخلق من وشـــك الصـــدام جرى

لا يكشـــف الســـوءَ إلاّ اللهُ فهو عـــلى
كـــل العبـــاد رقيـــبٌ جـــلّ مقتـــدرا

مولىً ، نَواصـــي جميـــعِ الخلق في يـــده
إليـــه كـــلٌّ غـــدا بالعجـــز مفتقـــرا

ما مِـــن سـكونٍ وتحريـــك يكون بنـــا
إلاّ بأمـــر حكيـــم أبْـــدع الصـــورا

لنـــا جرت في دمشـــق الشـــام كائنـــة[1]
لربّنـــا قـــد شـــكونا هولَهـــا الخطِرا

طالـــت علينـــا بخـــوف ليـــس نعهـــدُه
من قبلُ ، يوماً ، فصرنا نأخـــذ الحَذَرا

نهارُنـــا فيـــه أسبـــابٌ معطّلـــة
وليلُنـــا في صبـــاحٍ يصـــدع الحجَـــرا

مـــا ليلـــة تنقضـــي إلاّ ونقطعُهـــا
همّاً بأفكـــار حُـــزن تقتضـــي الســـهرا

واذكـــرْ خـــوارق ظُلْمٍ لا يُقـــاس بـــه
ظلـــم إذا الأمـــمُ مـــن مُرّ البـــلاء مـــرا

والناس أضحَـــوا سُكارى حائريـــن ولا
يدرون مـــا يفعـــل البـــاري بهـــم قدَرا

---

(١) حادثة بلغة الشام .

كأنهمْ سِـــرب أغنـــام بمجـــزرة
لمّـــورد الذبـــح كـــلٌّ بـــات منتظـــرا

منهـــم مـــن اختـــار مأوى غـــيرَ ممـــكنة
والبعض ســـافر والبعض اختفـــى حـــذِرا

من خوف دي ســـطوة فيـــه الغـــرور لقد
أغـــراه في الناس ظلمـــاً فاحتـــاً بطِـــرا

وكـــم بـــدت منـــه أنـــواع معـــدّدة
مـــن القبـــائح شـــتى غـــيرُ مـــا ذُكـــرا

فليتـــه يكتـــفي في ألـــف واحـــدة
بـــل اجتـــرى وافتـــرى بغيـــا وما فتـــرا

يا ويـــلَ من لم يخف نقض العزايم من
جنـــاب مقتـــدِرٍ كـــمْ طاغيـــاً قهـــرا

لكـــنْ إلـــهُ الـــورى جـــازاه منتقمـــا
منـــه بأفعالـــه لمّـــا بـــه مكـــرا

ولا تســـل عـــن أمـــور صعبة وقعـــت
يشـــيب من هولهـــنّ الطفـــل لـــو بصُرا

تجمّعـــت فِرقـــة مـــن نحـــو حاكمهـــمْ
هِـي أصـــلُ إيقـــاد جمرٍ حرّه اســـتعرا

همّـــوا بأن يكبســـوا ليـــلاً فوارسَـــنا
هـــمْ أهـــل قبلتنا ، بل هم أسودُ شرى

حجـــم" غفـــير" لهـــم أردت ثمانيـــة"
من أهـــل ميدانِ حربٍ يا لهـــمْ نفَرا

إدْ بالعدوّ محاليبَ الوعى نشَبوا
فغادروهم ثُفورا كالقطا ذُعُرا

تفرّقوا هربا أيدي سبا ، ونبا
سيفُ العزيمة منهم والحِجى سَكِرا

آبُوا بخُيبة آمالٍ بحيت رأوا
عقوبةَ البغي يا تعساً لِمن خسِرا

لهم تلت من أهالي الغَرْب شِرذمة"
حمقى بآلة شرٍّ تقدح الشّررا

صالوا علينا بسيف البغي وانتهكوا
بجَوْرهمْ حُرُمات الله في الفُقَرا

طغوا بسفك دماءِ المسلمين أسىً
ونهبِ أموالهم تبّاً لِمن فَجَرا

رامُوا أموراً بإفسادٍ فما شعروا
إلاّ وفيهم أسود" أحدقوا زُمَرا

ولم تزل جِلّقُ الفيحاءُ عامرةً
بكلّ ذي هِمّة عَليا اذا اختُبِرا

همُ الكرامُ لهم في كلّ حادثة
غوثُ الصّريخ ، وبذلُ وافر" وقِرى

جزاهُم اللهُ خيرا عن جميع بني
دمشقَ والأجرُ عند الله لن يَتِرا

وكيف لا ودمشقُ الشامُ موطنُهمْ
مدينةُ الفضل مولانا لها اعتبَرا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقولـه أنـا ربُّ الشـام إنَّ يـدي
عليكِ يا شـامُ أكفـي أهلَكِ الضَّرَرا

والشـامُ منشـأُ كـلِّ الأنبيـاء إذا
حقّقت في صِـدق نصٍّ جاءنـا خبَـرا

أرضٌ مقدّسـةٌ بالأمـر تحرسُـها
أقطـابُ عـزم وسـادات بهـا حُضُـرا

فيهـا ملائكـةُ الرحمـن باسـطه
للحفـظ أجنحـةً قـد كـلّلـت دُرَرا

لكـنْ دهتنـا بهـذا العـامِ جادثـةٌ ،
عمَّـت ولا فتنـةُ التيمـور اذ ظهَـرا

لـولا المهيمِـنُ بالألْطـاف داركنـا
فيهـا لكنّـا إذاً هلْكـى بهـا خَطَـرا

يـا فتنـةً مـا رأى الرائـي نظائرَهـا
في بلـدة حيـت في تاريخهـا نَظَـرا

« عن مقال للدكتور صلاح الدين المنجد في مجلة

مجمع اللغة العربية مجلد ٤٢ ، ج ٤ ، ص ٨٠٥ »

وقد أورد القصيدة كاملة الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه « حلية البشر في رجال القرن الثالث عشر » . ولنا عليها الملاحظات التالية :

١ ــ هذه القصيدة ليست من الشعر الفني بل هي من قبيل النظم العلمي وإن كانت لا تخلو من عاطفة .

٢ ــ وهي من نوع الشعر التاريخي الذي شاع في هذا العهد وسُجّلت فيه الحوادث لتبقى في ذاكرة الناس وفي كتبهم وقد عني الناس به وكانوا يتباهون بنظمه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ــ هذه القصيدة سجل تاريخي لصدام أهل دمشق مع الوالي الظالم حسين باشا وهي تذكر تفاصيل الحادث وأسباب القتال ومراحله وكيف فر الوالي وتهنىء أهل دمشق بالنصر .

٤ ــ يقصد بأهل دمشق في القصيدة سكانها المدنيين والجنود من الانكشارية المحلية المسماة « اليرلية » ومن غيرهم ممن هم من أصل عربي دمشقي أو من أصل أعجمي ولكنه مستوطن دمشق .

٥ ــ في القصيدة حب ظاهر لدمشق وأهلها وتعلق بها واعتقاد بأنها خير البلاد وان الله يحميها من كل سوء ويبطش بأعدائها .

٦ ــ تسجل القصيدة بمداد الفخر أن أهل دمشق لم يكونوا يرضون بالذل والظلم وأنهم كانوا يثورون ضد الولاة الظالمين القساة ، والشاعر يخص بالذكر من أهل دمشق سكان الميدان الذين تولوا على ما يظهر العبء الاكبر من المعركة وكان أكثر جنود الانكشارية المحلية يسكنون في هذا الحي وكان قسم صغير منهم يسكن في حي سوق ساروجة .

٧ ــ يظهر في القصيدة شعور محلي وطني ضد الوالي الغريب وجنوده كما تظهر شجاعة الدمشقيين في القتال .

٨ ــ ليس في القصيدة صور بيانية أو زخارف لفظية والشاعر مهتم بذكر الحقائق التي ترافقها العاطفة الطبيعية التي يشعر بها الانسان نحو أهل بلده ونحو أعدائه في حالة قتالهما . وليس فيها من صفة الشعر الا الوزن والقافية ، والعاطفة . وهي طويلة .

٩ ــ فيها أبيات ركيكة التراكيب ولكن أكثر أبياتها واضح متماسك الصياغة ، ولا تخلو بعض أبياتها من خطأ لغوي مثل ادخال الالف واللام على بعض ، أو نحوي كقوله فانظر فعلكه أشرا . وقد يكرر في الشطر الثاني ما قاله في الاول .

١٠ ــ للقصيدة طابع شعبي واضح ، تفكيراً وعاطفة وصوراً وألفاظاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المديح النبوي

ثابر الشعراء في هذا العصر على النظم في المدائح النبوية ولكن لم تظهر لهم قصائد تضارع مبمية البوصيري أو همزيته واستمروا على الاخذ بفكره الحقيقة المحمدية القائمة على أن النبي هو أصل كل خير ورحمه ولولاه ما خلق البشر ، وعلى التوسل اليه وطلب الشفاعة منه وإزاحة الكرب .

وكانت دوافعهم الى نظم هذا اللون من الشعر هي دوافع من سبقهم نفسها . ومثال ذلك قول الاستاذ الامام أبي المواهب البكري (١٠٣٧ هـ) يمدح الرسول الكريم ويستغيث به :

ما أرسلَ الرحمن أو يرسل ... من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو مُلكِه ... مِن كلّ ما يختصّ أو يشمل
إلاّ وطبه المصطفى عبدُه ... نبيُّه مختارُه المرسَل
واسطةٌ فيها وأصلٌ لَها ... يعلم هذا كلُّ من يعقل
فلُذْ به في كل ما ترتجي ... فهو شفيعٌ دائما يُقبل
وعُذْ بِه في كل ما تختشي ... فإنّه المرجع والموئل
وحُطْ أحمال الرجا عنده ... فإنّه المأمل والمَعْقِل
ونادِه إنْ أزمةٌ أنشبتْ ... أظفارَها واستحكمَ المُعضِل
يا أكرم الخلق على ربّه ... وخيرَ من فيهم به يُسأل
قد مسّني الكربُ وكم مرةٍ ... فرجتَ كربا بعطفه يُذهل
ولن ترى أعجزَ مني فما ... لشدةٍ أقوى ولا أحمل

« المنتخب لأحمد أمين وزملائه ، ج١ : ٢٢٥ »

ونلاحظ ان المعاني ليست جديدة بل هي مستمده من البوصيري وسائر شعراء العهد المملوكي ، وأنّ الصياغة ليست ركيكة ، على أنها ليست في المستوى الارفع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول الشيخ مجد الدين الوتري البغدادي[1] مستغيثا بالشفيع من ذنوبه التي ينوء بها :

أغثني أجرني ضاع عمري الى متى
بأثقال ارزائي أراني أُرزأُ

إذا لم يكن لي مِن جنابك شافعٌ
شقيتُ فما لي غيرَ جاهك ملجأ

« شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ليوسف النبهاني ، ص ٢٨٥ »

يصوّر البيتان السابقان توبة المذنب وشعوره بعظم ذنوبه واستشفاعه بالنبي لدى الله ليغفر له وينجيه من شقائه وفيها حرارة وصدق وإيمان وجمال .

المدح الذاتي التقليدي

ظل الشعراء في هذا العهد يمدحون من لهم بهم علاقة حسنة من أمراء وحكام ومشايخ وأصدقاء وأقرباء وقد يكون من حيث المقدار قليلا اذا قيس بما كان عليه في العهد المملوكي التركي وما قبله من عهود ولكننا نعتقد أنه أغزر مقدارا مما كان عليه حاله في العهد المملوكي الجركسي . والكثرة والقلة النسبيتان ترتبطان ارتباطا وثيقا بمدى قوة العلاقة بين الشعراء والعظماء وبكثرة صِلات الشعراء الاجتماعية أو قلّتها .

وكانت تجارب بعض الشعراء مع العظماء الممدوحين غير مشجعة أحيانا على الاسترسال في المدح . وهذه النغمة قديمة ففي كل عهد نرى شاعرا أو أكثر يتصور أن الكرام في عهده قد فقدوا لسوء حظه ونراه يندم على أنه بذل لهم مديحه .

قال منجك (١٠٠٧ ــ ١٠٨٠ هـ) يستغفر الله من شعر المدح الذي هو منقصة :

---

(١) هو ابو محمد احمد بن محمد الوتري الشافعي . ذكر الزركلي في الأعلام ان لقبه ضياء الدين (ج١ ، ٢٢٣) (ت ٩٨٠ هـ ــ ١٥٧٣ م) . كان شيخا فاضلا صالحا .

دعني مـن الـشـعر إنّ الشـعر منقصـة
بالمجـد بخنـال بـن البيض والأسـل

أسعر الله مـن شـعر مَدحتُ بـه
قومـا مديحُهـم مـن أعظـم الزلـل

« الريحانة ج١ ص ٢٣٢ ، وخلاصة الاثر ٤ : ٤٠٩ »

لقد دلت الشاعر خيبته على خطئه في التذلل للسدوحين فحمله دلك على أن يعدّ الشعر نقيصة إذا قيس ببطولة القتال التي يتبختر بها صاحبها بين السيوف والرماح كما هو شأن أهله ، وعلى أن يستغفر ربه من مديح قوم لا يستحقون هذا المدح . والذنب في الحقيقة دنبه ، لو صدق نفسه القول ، فهو الذي أضاع ماله في الملذات وبين مرناء السوء المتكسبين وهو الذي أذلّ نفسه وشعره بالطلب .

ومن مدائح هذا العهد قصيدة للمحبي صاحب خلاصة الاثر ونفحة الريحانه يمدح بها الشريف أحمد بن زيد ... بن أبي نمي الذي تولى شرافة الحجاز والذي توفي سنة ١٠٩٩ هـ ، وكان الشريف قد اضطر الى النزوح عن الحجاز والتنقل في البلاد حتى وصل الى القسطنطينية فعيّنه السلطان شريفا على الحجاز وطلب منه أن يصلح أحواله . والقصيدة طويلة ونوردها كاملة لنبين أن بعض شعراء هذا العهد قد عادوا بقصائد المدح الى عمود الشعر القديم والى مستوى جيّد من الأداء :

يجوب الارضَ من طلب الكمالا ومَن صحب القنا بلغ السؤالا
وكم في الارض من سكَن ودار وان كان النوى يُضني الجبالا
وما هجْري الدمى ذلاً ولكنْ رأيتُ الذلّ أن أهوى الجمالا
وأنّ الحتف في حبّ الغواني جزيْن الصبَّ هجرا أو وصالا
أما وحياةِ عينيكِ اللواتي بغير السحر تأبى الاكتحالا
وما بسقيم جفنكِ مِن فتور أعاد البدر مِن سقَم هلالا
لأنتِ أعزّ من روحي ومالي وإنْ لعب الزمان بنا ومالا
وكم للشوق في أحشاء صبٍّ يبيت خيالُه يرعى الخيالا

يخاطب من أمانيه نديما ... ويجني من مطامعه نوالا
فيقطع بالنوى الأيام سيرا ... ويقطع بالمنى السود الطوالا
اذا ما أوهمته النفس أمرا ... وراء السد كلفها ارتحالا
وليس الجد في الدنيا بمجد ... ولا زاد النوى رزقاً ومالا
ولكن الأمور لها دواع ... وأسباب بقاء أو زوالا
وأسهرني بارض الروم برق ... سرى من جلق يشكو الكلالا
وجدد لي بأرض الشام عهدا ... وذكرني الأحبة والظلالا
مراطن صبوتي ومقام أنسي ... وإن صرمت أهاليها الحبالا
وما كانت غوانيها جفاة ... ولكن علموهن الدلالا
وبرك المرء دار الضيم حتم ... ونفس الحر تأبى الاعتقالا
وما كلفتهم شيئاً ولكن ... أعاد الوهم رشدهم ضلالا
وليس يبين فضل المرء حتى ... يبين ويشبه الشهب انتقالا
ومن لم يشكر النعماء يوماً ... وأنكرها فقد رضي الزوالا
جفوا فحلمت فازدادوا جفاء ... وظنوا الحلم عجزاً واحتمالا
وبعض الجهل في الأحيان خير ... وبعض الحلم يستدعي النكالا
فحلفت الديار ومن عليها ... وفارقت الأحبة والعيالا
وسرت ولي من الذكرى سمير ... يؤرقني وصحبي والجمالا
فلا زالت لأحمد مكرمات ... تقابلني نزولاً وارتحالا
هو المولى الشريف ومن تسامى ... الى العيوق أفضالا وطالا
مليك مستفاد من مليك ... كغصن الروض أكسبه شمالا
فتى للمجد قد أضحى يمينا ... وباقي الناس كلهم شمالا
طليق الوجه بسام المحيا ... يسابق فضله منا السؤالا
ومن أحيا موات الجود فضلا ... وورث عدله الدنيا اعتدالا
تهون به الصعاب وكل عقد ... أبى الا بكفيه انحلالا
أجل ملوك أهل الأرض طراً ... وأصدقهم اذا نطقوا مقالا
رويدا أيها الراجي علاه ... فإن الشمس تكبر ان تنالا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويا مَـن قاسـه بالبحر جُودا ... لقـدْ فايسـتَ بالمِلْح الزُّلالا
ويا مَـن قد أراد له نَظـيرا ... لفـد كلّفت دنيـاكَ المُحـالا
لـه النسبُ الرفيـعُ الى نبيٍّ ... لقد نالـت بـه الدنيا جَمـالا
أجـلُّ المرسـلين ومقتـداهمْ ... وأجزلُ مَن على الغَبْرا نـوالا
عليـه بِعدّ أنفـاس البرايـا ... صـلاةُ الله تُكسـبه كمـالا
اليك سليلَ خيرِ الخلق أشكو ... نوىً قصُـرت نتيجتُه وطـالا
وهاكَ حُلىً على الهِيف الغواني ... وإلاّ خُذْ على الوَجَنات خالا
عَروب"، إنْ أردتُ قتالَ خصمي ... أجرّدُ مِن قوافيهـا النِّصـالا
تمتّـعْ مِـن مدائِحها بروضٍ ... يروقُك منـه شـمأله اعتـدالا
ودُم صدرَ الزمان ، ولا رأينـا ... لذاتِك ما خدا الحـادي زوالا
لمجـدك تنتمي زهـر الدراري ... ومجدُك ينطق الكـون ارتجالا

« خلاصة الاثر ، ج١ ، ١٩١ ــ ١٩٣ »

فهذه القصيده جيدة المستوى لو لم نعرف قائلها لقلنا أنها من شعر جرير أو أمثاله في العصر الاموي مسن كانوا يؤثرون السهولة في الأداء . يعيبها أنّ معانيها تقليديه ليس فيها جدة وابتكار ولكن الشاعر أحسن ايرادها وسبكها ووضعها في مواضعها . وقد بدأها بالغزل جاريا على نظام الشعر القديم وأطال هذا الغزل لانه يتلاءم مع نفسه ، وجعله مناسبا لموضوع القصيدة وحال الممدوح . وهذا ما كان يلاحظ في المقدمات الغزلية التي كانت تبدأ بها قصائد القدماء . فقد جعل نفسه يتنقل هائما في حبه من مكان الى مكان كالممدوح الذي أزعج من بلده فأخذ بالتنقل من بلد الى بلد حتى تهيأت له العودة الى وطنه وسلطته .

ويشعر قارىء القصيدة بسهولة الشعر وانثياله وصدوره عن طبع سمح وقريحة خصبة وقرب تناول المعاني والأخيلة ، وبأنها في مستوى جيد .

وقد يفخر الشاعر أمام ممدوحيه بشعره فبهم على عادة القدماء الفحول . قال الطالوي من قصيدة يخاطب ممدوحيه :

لي فيكم كدراري الأفق سائرة" ... هي اللآلـىءُ الا أنّهـا كَلِـم

من كل شامخة العرنين تحسبها ... في الشعر ليناً لها من نفسها أجمُ
تبقى على صفحات الدهر خالدةً ... كالأنجم الزهر عقداً ليس ينفصم
أو عاد حسنها قيدُ النواظر في ... ألحاظها سقمٌ ، في أنفها شممُ

« الريحانة ، ج١ ، ص ٧٣ »

وهذه الأبيات تتسم بما تتسم به سابقتها من حيث قوة الاسلوب مع التقليد في المعاني والصور والأداء .

الرثـــاء

الرثاء كثير في هذا العهد ولكن رثاء السلاطين والحكام العظماء فيه قليل بالاضافة الى سائره . وتناول أكثر الرثاء بكاء العلماء الذين يكونون شيوخ الشاعر ، ثم الاصحاب ، والاقارب . ومن المراثي ما قاله علماء كانوا ينظمون الشعر في مستوى وسط بين الاجادة والرداءة ، وهم كثر . ومعاني الرثاء وصوره في مجملها تقليدية . ولكننا نرى أحيانا شعراء يرثون عزيزا عليهم فنل في حادثة لها طابع خاص يصفونها . وقد يستلفت نظرنا لمعة من التجديد في المعاني أو إحياء ما درس منها ونسي في شكل جديد . وسنرى أمثلة على ذلك كله .

قال يحيى الاصيلي (ت ١٠١٠ هـ) يرثي العلامة النحريري البصير ، خاتمة المفسرين ، وهو شمس الدين محمد النحريري :

إنْ عصاني شعري لفقد شعوري ... فدموعي ترثيك بالمنثور
يا إماما لما سكنتَ جنانا ... فاض دمعي عليك فيضَ البحور
وبكى الأزهر المعمَّر بحرا ... كان في الله ربّ دمع غزير
فمصابيحه بأحشائها النا ... رُ عليه من لوعة التذكير
ومحاريبه لفرقة ذاك الصد ... ر أضحت مقوّسات الظهور

« الريحانة ، ج٢ ، ص ٤٥ »

وقد رد الشهاب الخفاجي هذا المعنى الى بلديّه ابن نباتة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على مثـل ذا فلتبـك أعينُنا العبرى ... وتطلق في ميدانها الشهْبُ والحمرا
فقـدنا بنـي الدنيـا فلمـا تلفّتت ... وجوهٌ أمانينا فقدنا بنـي الأخـرى
سيعلم كلُّ من ذوى المال في غـدٍ ... إذا نُصِب الميزان من يشتكي الفقْرا
كـأنَّ المحاريـب القيـامَ بصدرِهِ ... لفُرقة ذاك الصدرِ قد قوّست ظهْرا

« الريحانه ، ج٢ ، ص ٤٦ »

ويلاحظ ان يحيى الأصيلي يرثي العلامة النحريري بما يُرثي به العلماء عادة من صفات العلم والفضل • وهو يبدي حزنه ويذكر فيض دموعه عليه لصلته الخاصة به وفضله عليه ، ويجعل الجنة نصيبه في الاخرة ، ويُشخّص الأزهر فيُبكيه عليه ويجعل ما بأحشاء المصابيح من النار منبعثا من لوعتها عليـه • كما يجعل المحاريب مقوّسةَ الظهور لفقده • ويصرح في أول بيت بأنَّ شعره قد يعجز عن وفائه بحقّه لذلك تساعده دموعه بنثر دمعها وبذلك يقابل بين الشعر والمنثور ويورّي في كلمة المنثور لانه يريد بها الدمع المتساقط •

وقد نقد الشهاب الخفاجي معنى البيت الاخير فسب ابتكاره الى ابن نباتة المصري وأورد أبيات ابن نباتة التي تضمنته في الرثاء وقد ورد المعنى المقصود في آخر بيت منها •

ويتبين من موازنة أبيات الاصيلي بأبيات ابن نباتة فرقُ ما بين الشاعرين في المستوى الفني الشعري من حيث التصوير وحسن الأداء فابن نباتة الذي هو من شعراء العهد المملوكي الاول يعدّ مُحلّقا بالقياس الى الأصيلي أحد شعراء بداية الدور الثاني من العهد العثماني •

ومن رثاء الأقارب في هذا العهد ما قاله البهاء العاملي (ت ١٠٣١ هـ) يرثي به والده (ت ٩٨٤ هـ) الذي توفي عن ست وستين سنة • قال :

قف بالطلول وسلْها ايـن سلْماهـا ... وروِّ مـن جُرَع الاجفان جَرْعاها
وردِّد الطرْف في أطـراف سـاحتها ... وأرّج الوصـلَ من أرواح أرْجاها
فإنْ يفُتْكَ من الأطـلال مخبرُهـا ... فـلا يفوتَنّـك مرآهـا ورَيّـاها

ربوعُ فضل تُباهي التربَ تربتُها ... ودارُ أنس يُحاكي الدر حَصْباها
عدا على جيرةٍ حلّوا بساحتها ... صرْفُ الزمان فأبلاهم وأبْلاها
بدورُ تمٍّ غَمام الموت جلّلها ... شموسُ فضلٍ سَحابُ الترب غشّاها
فالمَجْد يَبْكي عليها جازعاً أسِفا ... والدينُ يندبُها والفضلُ ينعاها
يا حبّذا زمنٌ في ظِلّهمْ سلَفتْ ... ما كان أقصرَها عُمْرا وأحْلاها
أوقاتُ أنسٍ قضيناها فما ذُكرتْ ... الا وقَطّعَ قلبَ الصب ذِكراها
يا جيرةً هجروا واستوطنوا هَجَرا ... واهاً لقلبي المعنّى بعدكمْ واها
رعْياً للَيلاتِ وَصل بالحِمى سلفتْ ... سَقيا لأيامِنا بالخِيف سُقياها
لفقدكمْ شُقّ جَيْبُ المجد وانصدعت ... أركانُه وبكم ما كان أقواها
وخرّ مِن شامخات العلم أرفعُها ... وانهدّ من باذخات العلم أرساها
يا ثاويا بالمصلّى مِن قُرى هَجَر ... كسيتَ من حُلل الرّضوان أصفاها
أقمتَ يا بحرُ بالبحرين فاجتمعت ... ثلاثةٌ كنّ امثالا وأشباها
ثلاثةٌ أنت أنداها وأغزرُها ... جودا وأعذبُها طعما وأصفاها
حويتَ من دُرر العليا ما حويا ... لكنّ دُرّكَ أعلاها وأغلاها
يا أعظماً وطئت هامَ السُّهى شرَفا ... سقاكِ من دِيَم الوسميّ اسماها
ويا ضريحاً على هام السِّماك علا ... عليك من صَلَوات الله أزكاها
فيك انطوى مِن شموس الفضل أضوؤها ... ومِن معالم دين الله أسناها
ومن شوامخ أطواد الفتوّةِ أر ... ساها وارفعُها قدْرا وأبهاها
فاسحب على الفلك الاعلى ذيولَ عُلا ... فقد حويتَ من العَلياء عُلياها
عليك منا صلاةُ الله ما صَدَحت ... على غصون أراكِ الدَّوْح وَرْقاها

« الريحانة ج ١ : ٢٠٧ ، وخلاصة الاثر ج ٣ : ٤٤٠ »

فالبهاء العاملي يقف في هذه الابيات على ديار أبيه ومراتع صباه ، ويكني عن أبيه بالجيرة ، وكأنه يتغزل ، ثم لا يلبث حتى يصرّح بذكر البِلى ، والموت ، ويبكي ما كان ينصف به أبوه من كمال ومجد ودين وفضل ، ويأسى على أوقات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأنس في صباه ، ويبدي لوعته لفقد أحبابه ، ثم يعود الى ذكر فضائل أبيه فيجعل ثوب المجد وجبال العلم مفجوعة به ، ويدعو له بالجنة ، ويذكر أن وفاته كانت بالبحرين ، ويجعله ثالثهما كرما ، بل أغزرهما • ويعود الى وصفه بالمجد ، ويدعو لأعظمه بالسقيا ، ويناجي ضريحه ، فيطلب له من الله أزكى الصلاة • ويصف أباه بعد ذلك بصفة جديدة هي الفتوه ، ثم يجعله أعلى من الفلك مجداً • ويتم الأبيات بالصلاة المستمرة عليه ما قامت حمامة تبكي على أراكة •

وهذا الرثاء يمكن أن يقال في أي عالم آخر غير أبيه يكون بينه وبينه مَودّة وليس فيه من سمات صلة القربى بأبيه إلاّ بكاؤه على مرانع طفولته التي هي ديار أبيه وعلى الاوقات التي قضاها بها وقد شعر بأنها قصيرة ويضاف اليه صدق العاطفة وشدة اللوعة • والأبيات تقليدية المعاني والصور والاسلوب ولكنها حسنة السبك والأداء قوية المشاعر •

وقد لفت نظرنا في هذا العهد ما ظهر لدى بعض الشعراء ، وعلى التحديد لدى ابن النقيب الحلبي (١٠٥٦ هـ) ولدى معاصره وصديقه القاضي صلاح الدين الكوراني من محاولة احياء الجماد ومناجاته فقد أورد المحبي في الخلاصة (ج٢ ، ص ٢٥٤) ما قاله أحمد بن النقيب وقد رأى أن أشجارا من العُنّاب ، قرب ضريح والده ، قد زهت بأغصانها المخضرة وتمارها المحمرة فبكى وتحسر :

وقائلةٍ والدمعُ في صيحن خدّها
يفيض كهطالٍ من السحب قد همى

أرى شجرَ العُناب في البُقعة التي
بها جدَثٌ ضم الشريف المعظّما

له خضرةُ المرتاح حتى كأنّه
على فقده ما إن أحسّ تألّما

وأغصانه فيها تمارٌ كأنّها
بحمرتها تُبدي السرور تلوّما

ولـو أنصفـت كانـت لعظْـم مُصـابه
ذوى واكفهـرّت حـيرة وتنـدّمـا

فقلـت لهـا مـا كـان ذاك تهاوُنـا
بمـا نالنـا مِـن رزئـه وتهضّمـا

ولكنّهـا لمـا وضعنـا بأصـله
غديـراً بأنـواع الفضـائل مفعَمـا

بـدت خضـرةٌ منـه تـروق ، وحزنُـه
كمـين ، فـلا نسـتفظعيه توهّمـا

ومـا احمـرّت الأثمـار إلاّ لأنّنـا
سـقيناه دمعـا كـان أكثـرُه دمـا

وقد وقف مُعاصره وابن مدينته صـلاح الدين الكوراني المتوفى سـنة ١٠٤٩ هـ[1] على هذه الابيات فقال أبياتا منها :

فيـا شـجَر العُنـاب مالـك مثمـرا
سـرورا ولم تجزع عـلى سـيّد الحِمـى

علـى رمسـه أورقـت تهتـزُّ فرحـة
وتُدلـي اليـه كـل غُصـنٍ تنمنمـا

أهـذي أمـارات المسـرّة قـد بـدن
أمِ الحـزنُ قـد أبكـاك من دونـه دمـا

ومنها عـلى لسـان العنّـاب :

نعـم فرحتـي أنـي مجـاورُ سـيّدٍ
نسـا حسـبا في عصـره ونكـرّمـا

---

(١) المرجع نفسه « خلاصة الأثر ح٢ : ٢٥٤ » .

وحضرته روضٌ من الجنة التي
زهت بضجيع كان بالعلم مغرَما

أتعجبُ بي اذ كنتُ في جنب روضة
وحقّي فيها أنْ أقيم وألزما

كعادة أشجار الرياض فإنّها
تمكّن فيها الأصلُ والفرعُ قد نما

وقد قيل في الأسماعِ إنْ كنت سامعا
خُذِ الجارَ قبل الدار إذْ كنت مسلما

أما سار من دار الفَناء الى البقا
وأبقى ثناءً بالجميل معظّما

ومن كان بعد الموت يُذْكَر بالعلا
فبالذكر يحيا ثانيا حيث يمّما

فقلتُ له يهنيك طيبُ جواره
وحياك وسميُّ الغمام اذا همى

لتُسقِطَ أثماراً على جنب قبره
ليلقطها من زاره وترحّما

فواعجبا حتى النباتُ زها به
فحَقٌّ لنا عن فضله أن نترجما

فلا زالت الأنواء مغدِقة على
ثرى قبره ما ناح طيرٌ وزمزما

واضح أن هذه الابيات رائعة الجودة والجمال بما فيها من عاطفة حزن عميقة قوية صادقة ومن احياء للنبات وجعله يشارك الحزين في حزنه وفي ادراكه فضل المتوفى ، ومن حوار يبعث الحياة فيها ومن لطف خيال وحسن تعليل لخضرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النبات الحزين • وواضح ان الشاعر الثاني الكوريني يعارض الاول ، ابن المتوفى ، (أحمد بن النقيب) • وهذه الابيات وان سُبقت بخيال مشابه في العهد القديم على لسان ليلى بنـــت طريف نرني أخاها المقتول في أبياتها المشهورة :

فيا شجرَ الخابور مالك مُورِقا كأنّك لم تجزع على ابنِ طريفِ

فانّ الشاعرين المتأخرين قائلبها قد بسطا الموضوع وأفاضا فيه وكانا قريبين جدا في أدائهما من روح الشعر الإبداعي الذي قيل في القرن التاسع عشر ومن أسلوبه في الاداء ، وكانا إرهاصا سابقا له في البلاد العربية •

الغـــزل

لعل الغزل أكثر الفنون الشعرية قدرة على الاستمرار والبقاء والتجدد في الشكل مع بقاء المضمون حيا باقيا محافظا على كثير من أصوله لارتباطه بالغريزة الانسانية ، غريزة حب البقاء والمحافظة على النوع ، ولذلك نرى أن القديم يمتزج فيه بالجديد كثيرا ونرى كثرة من القصائد والمقطوعات فيه تأتي جيدة أو ممتازة برغم أن مستوى الشعر في بقية الموضوعات قد لا يكون كذلك ، وذلك لان موضوع الغزل يتصل كما قلنا بالنفس الانسانية وتجاربها المستمرة الباقية مع بقاء الجنس البشري ولا بد من أن يكون لكل شاعر تجربته فيه أو تجاربه الحية الصادقة وانفعالاته المضطرمة المتنوعة •

ولهذا كله نجد أن الغزل في العهد العثماني بمختلف أدواره قـــد تعددت أنواعه ونستطيع أن نميز فيه قسمين رئيسيين قسم القصائد وقسم المقطعات • فأما قسم القصائد فنجد فيه جميع الانواع التي رأيناها في عهود الدول المتتابعة السابقة : نجد بعض شعراء يجارون الأقدمين في معانيهم وأساليبهم ونجد بعضهم يتغزلون في مطالع قصائد المدح سواء أكان هذا المدح في عظيم أو قريب أو صديق ونجد بعض الغزل يستقل بنفسه في قصائد طويلة ونجد غزلا طبيعيا في النساء وغزلا شاذا في الغلمان وغزلا فيه شيء من التهتك يقال في مجالس الطرب والغناء •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد نجد الشاعر أحيانا يتذلل للحبيب وفق عمود الشعر العربي وقد نجد آخر يثور فيأبى أن يذل للحبيب ، ويعامله معاملة الند للند ، وفي ذلك كله نرى ان المعاني التقليدية هي الغالبة ولكن الى جانبها بعض المعاني الجديدة التي يستقيها الشاعر من تجارب واقعية ومن سوانح فكرية أو خيالية •

فأما المقطعات فقد أكثر منها شعراء هذا العصر لعدم حاجتها الى النفس الطويل كالقصائد ، ولانها يمكن أن تتضمن فكره جديدة طارئة أو تجربة عابرة أو تشبيها طريفا أو نكتة بديعة أو لفتة عاطفية أو سانحة بديعية لفظية • وتمتاز في نظرنا على القصائد بأنها أبعد عن التقليد وأقرب الى التجديد واحتواء المعاني والصور المبتكرة ، وأسهل تناولا منها على الذين يخطر لهم أن ينظموا الشعر من غير المحترفين •

وتتناول المقطعات غالبا إما الحديث في عاطفه الحب بصوره مجملة من غير تفصيل أو الحديث في نواحي جزئية من الجمال أو الاحساسات والتجارب مثل الحديث عن الثغر والريق والخد المختضب ، والخال على الشمة ، والذؤابة التي تشبه الحية ، واستعمال بعض مصطلحات العلوم ، في الغزل تظرفا ، وبعض المعاني المستلطفة في مغازله الأتراك ، وحسناء ترى صورتها في مرآتها ، ولقاء حبيب بعد هجر ••• الخ •

ونلاحظ من حيث الاسلوب والشكل أن بعض الشعراء في هـذا العهد قد عارضوا قصائد منسهورة لسابقيهم ، وأحيانا لمعاصريهم وان بعضهم استخدم أسلوبا جديدا في الغزل بطريقة الدعاء الى الله والمناجاة ، وقد سبقه اليه أحـد شعراء العهد المملوكي التركي ولكنه لم يبتذل على السن شعراء كثيرين ، كما نلاحظ أن بعض الشعراء استخدموا الرباعيات في غزلهم •

وقد وجدنا أن أرق الشعراء غزلا في هذا العهد ، بحسب اجتهادنا ، هو ابن النقيب الشاعر الذي ألّف فيه الدكتور عمر موسى باشا كتابا جيدا أفدنا من بعض آرائه فيه ومن بعض النصوص التي اختارها ، وقد جعلناه في كتابنا المفصل مثالا على شعراء الغزل الممتازين في هذا العهد واخترنا له نصا يتغزل فيه برعبوبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على طريقة الجاهليّين ونصا آخر يتغزل فيه بحبيب رشيق بالغ النحافة مما يوافق ذوق الاوروبيين المتأخرين الإبداعيين في القرن التاسع عشر ، وأبياتا له غنائية فيها بعض الانطلاق على طريقة بشار وأبي نواس ، وأبياتا أخرى تمثل مغامرات له ونزوات عاطفية ، ولمحات عنده من الادب الواقعي الجريء وأبياتا له يخرج فيها على عمود الشعر العربي فلا يتذلّل للحبيب • ولكنّ ضيق المجال في هذا الموجز منعنا من ايراد شيء منها •

وسنقدم للقارىء أمثلة على جميع الانواع الغزلية التي تحدثنا عنها فنعطي بذلك صورة كافية عن غزل هذا العصر ومستواه الفني • فمما جارى به شعراء هذا العهد الاقدمين قول البوريني (٩٦٣ ــ ١٠٢٤ هـ) :

وكنّا كغصنيْ بانة قد تألّقا ... على دوحة حتى استطالا وأينعا
يغنّيهما صَدْح الحَمام مرجّعا ... ويسقيهما كأسُ السحائب مترَعا
سليميّيْن من خَطْب الزمان اذا سطا ... خليّيْن من قول الحسود اذا سعى
ففارقني من غير ذنب جنيتُه ... وأبقى بقلبي حرقة وتوجّعا
عفا الله عنه ما جناه فإنّني ... حفظتُ له العهدَ القديم وضيّعا
ولكنّ سيُدرَى ودّ من كان مخلِصا ... صدوقا ويدرَى من يكون مصنّعا

« الريحانة ج١ : ٤٢ »

وهو من قول صفية الباهلية في « الحماسة الطائية » •

كنا كغصنيْن في جرتومة سمَوا ... حيناً بأحسنِ ما تسمو به الشجرُ
حتى اذا قيل قد طالت فروعهما ... وطاب فيئُهما واستنضَر الثمرُ
أخنى علي واحدي ريبُ الزمان وما ... يبقي الزمان على شيء ولا يذرُ
كنا كأنجُمُ ليل بيننا قمَرٌ ... يجلو الدجى فهوى من بيننا القمرُ

وفرق ما بين الشاعر المتأخر والشاعرة المتقدمة انها جاءت بالمعنى المشترك بينهما في الرثاء وجاء به هو في الغزل • وواضح أنها مبتكرة المعنى وانه مقلد فيه • ولكنّ صياغته لا تقل عن صياغتها جمالاً وقوة ووضوحا وسلامة •

ومن الشعر الذي قيل في مطالع قصائد المدح قول نور الدين العسيلي (ت ٩٩٤ هـ):

هل بالحِمى مِن بدور التم إمكانُ ... أم في خِلال بيوت الحي غزلانُ
أم الغواني تهادى وهي سافرة ... أم الشموسُ أقلتهنّ أغصانُ
سقى الحِمى وليالية التي سلفت ... من أدمعي ومن الوسمي هتّانُ
حيث الرقيبُ عمٍ والضدُّ ذو صمَم ... والحُبُّ ذو كرم والوقتُ إمكانُ
وحيث نرفل في ثوب الشباب الى ... تيك القباب وغصنُ العيش ريّانُ
يا صاح ان لم تمت من بعدها أسفا ... فان عيشك بعد اليوم خسرانُ
لي في الديار سقاها المزن صيِّبَه ... غزالُ حسن بديعُ الخلق فتانُ
يا ربّة الحسن قد بالغت في تلفي ... أما لهجركِ يا لَميساء هُجرانُ
هلا نظرتِ الى مضناكِ راحمةً ... فكان يشمع منك الحسنَ إحسانُ
ولائمٍ ظلّ يُبدي لي نصيحتَه ... لو لم تمُجّ أجاجَ اللوم آذانُ
وكان ظاهرُه عنوانَ باطنه ... والوجهُ للقلب ، فيما قيل عُنوان

ومنها في المدح:

اني امرؤ ما حييتُ الدهرَ أمدحُكمْ ... لعلّ جائزتي عفوٌ وغفران
حسّنتُ ظني ومدحي فيكم فعسى ... يُقالُ إنّي على الحالين حَسّان

« الريحانة ، ج٢ : ١٩٩ »

وقول الشهاب الخفاجي المتوفى سنه ١٠٦٩ هـ في مطلع قصيدة يمدح بها محمد بن قاسم الحلبي:

حتامَ يغزوني صدودُهْ ... والصبرُ قد كثرت جنودُهْ
لم أدرِ فاترُ جفنِه ... والخصرُ أسقم أم عهودُه
نشوانُ يعبث بي كما ... عبثت بآمالي وعودُه
لولا مياه الحسنِ جا ... لت فيه لاحترقتْ خدودُه
كالصبّ لولا دمعُه ... يهمي لأحرفه وقودُه

يُخفي الهوى وعيونُه بغرامه المضني شُهوده
فسقى رياضَ الحسن من دمعي حَيىً يهمي مَديده
زمنٌ بجيد اللهو قد نُظمت على نَسَق عُقوده
إذْ دَوْحُ أنسي يانعٌ بكؤوسنا انفتحت وُرُوده
والكأسُ نجمٌ لاح في فلَك المسرة لي سُعوده
يصفو فيُحلي ذكرَ من قد زيّن الدنيا وجودُه
داكَ ابنُ قاسمٍ الذي ما زال في تعَب حسودُه

« الريحانة ج١ : ٧٩ »

ويلاحظ على الشاعرين أنهما قد أطالا الغزل في مطلع مدحهما وان الثاني قد ألحق بالغزل وصف مجلس اللهو والخمر والنبس علينا الامر فلا ندري أهو يتغزل بفتاة أم غلام لاستعماله ضمير المذكر ، وقد أجاد في هذا الغزل طبعا وسلاسة وصورا وسهولة وحسن تعبير ولم يأت فيه بشيء جديد من المعاني والصور غير تقليدي معروف وأحسن التخلص الى ممدوحه وانتقل من وصف متعة الكأس الى حلاوة ذكر الممدوح الذي زين الدنيا وجوده وأتعب حساده بكثرة فضله . ذلك هو صديقه ابن قاسم . وفي أبيات كل من الشاعرين نفحة شعرية رقيقة وحلاوة تدلان على جودة قريحة وأصالة طبع . وقد رأينا في الابيات السابقة نمطا من الغزل التقليدي الذي يأتي في مطلع القصائد واليك هذا المثال من الغزل المقصود لذاته الذي أكثر منه شعراء هذا العصر ولم يقصّر كثير منهم فيه عن سابقيهم :

قال ابراهيم بن المبلّط الذي كان حيا سنة ٩٩١ هـ يتغزل من قصيدة طويلة :

حدثت بانة الحِمى عن صِباها عن ثنيّات مكّةٍ عن صَفاها
أنّ عصرَ اللقاء آن ووافى وزمانَ النوى انقضى وناهى
ونسيمَ الصَّبا يؤدي الأمانا تِ الى أهلها كما قد رواها
كم نسيمٍ سرى فسرّ قلوبا شفّها البعدُ والنوى فشفاها
تعرفُ العاشقين منها نُسيما تٌ ، وهم يعرفونها بشذاها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنّ أبدي الفراق جارن علينا ... في قضاءٍ فحسبُها وكفاها
آهِ وا وحشني لأحشاءِ قلبي ... وقليلٌ قولي على البعد آها

« المنتخب ج١ ، ص ٢٢٢ »

فهذه الابيات تذوب رقة وعذوبه وتعبّر عن تجربة صحيحة وعاطفة صادقة وقد أحسن الشاعر استغلال الحديث عن النسيم وربطه بربوع الحبيبة في مكة وبأثره في نفسه وعلل أثره في العاشقين وأحسن السبك والتصوير والتعبير عن لواعج الحب والشوق والالم ولا سيما في البيت الاخير « آه وا وحشتي » وأحسن في الجناس بين وا وحشني واحشاء وبين قليل وقولي كما أحسن في اختيار موسيقا البحر والقافية .

ومما يتعلق بالغزل بالغلمان في هذا العهد ما قاله الطالوي (٩٥٠ ــ ١٠١٤ هـ) وكان له غلام يحبه فاستلبه منه فخر الدين بن فرقماس بن معن الدرزي فغضب لذلك واستعدى عليه الشريف أمير الشام لينتصف له منه بقصيدة نقتصر منها على الأبيات التالية :

بالله يا نشرَ العبيـ ... ـر سرى بروضات الغَرِي[1]
طاف المشاهدَ واثنى ... نشوانَ من كأسٍ رويّ

• • • •

إنْ جئتَ ربع الشام فاقـ ... ـصِدْ ساحة الشرف العلي
أعني الشريفَ ابنَ الشريف ابنِ الشريف الموسويّ
متحملا عني السلا ... م كسلك دارِين الذكيّ
لجناب مولانا الوزيـ ... ـر وليّ مولانا علي
ثم اشرحنْ من حال مو ... لاه المحبّ الطالَوي
ماذا لقِي في ثغر صيْـ ... دا من دَروزِيٍّ غويّ
وافى بمكتوب الشريـ ... ـف اليه من بلد قَصِي

---

(١) الغرى : موضع بالكوفة دفن فيه الامام علي كرم الله وجهه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يُوصيه فيه كأنّما ... أوصاه في أخذ الصبي
فسقاه يوم فراقه ... لا كان ، بالكأس الروي
وغدا الحشا من بعده ... يبكي بدمع عِنْدمي
في غربة لا يشتكي ... فيها الى خِلٍّ وفيّ
لا جارٌ يحميه ولا ... يأوي الى ركن قوي
إلاّ الى ركن الشريف ... ف الطاهر الشيِّمِ الزكي
حامي حِمى الشرع الشر ... يف بكل أبيض مِخْذَمي
مولاي لي حقٌّ عليـ ... ـك فجُد به من غير لَيّ
بولاء حيدرةَ الوصيّ أخي النبيّ الهاشمي
لا تهملَنْ مِن أخذ ثا ... ري مِن كفورٍ بالنبي
وابعثْ اليه مقانباً ... فيها الكميٌّ على الكميّ
لو حاربتْ جندَ القضا ... ء ثنت سُراه عن مُضِيّ

« الريحانة ج١ ، ص ٦٣ »

مما علّق به الشهاب الخفاجي على الابيات السابقة بأنّ الوصي هو الامام علي كرم الله وجهه وذلك لان الشيعة تعتقد بأن النبي تآخى معه في غدير خمّ ولا تعتقد السنة ذلك . وكذلك علّق على قوله « لو حاربت ... » بأنه غلو كان ينبغي تركه .

ويلاحظ أنّ أمير لبنان قرقماس لا يستحيي في ذلك العهد من أخذ الصبي من صاحبه اغتصابا لا لينقذه بل ليكون حاله عنده حاله عند مالكه ، وكذلك نرى أن الشاعر لا يستحيي في أن يستشفع بالشريف الهاشمي الذي كان حينئذ أميرا على الشام في أن يرد له غلامه من قرقماس وكأنه يطلب منه أن يردّ له داره أو زوجته الشرعية المغتصبة . وهذا يدل على أن عادة الشذوذ الجنسي كانت مألوفة لدى هؤلاء القوم حتى لكأنها أمر طبيعي قانوني .

ومن الغزل الذي قيل في مجالس اللهو والغناء والمتعة ما قاله أبو المواهب البكري (ت ١٠٣٧ هـ) وهو :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حبيبك دانٍ رفيبٌ قريبٌ ... فماذا البكاءُ ومادا النحيبُ
نعم هو دانٍ ولكنّني ... بعيدٌ فقيد طريد عريب
بكائي عليَّ لأني بُليت ... بداءِ الصدود وعَزَّ الطبيب
وفاز المحبّون دوني بما ... به كلَّ وقتٍ لديهم يطيب
فهمِّي وهَمْسيَ زادا فما ... بقائي في النقص ، أمْر عجيب !
فيا هل ترى بعد هذا البُعاد ... يزول الصدود ويرضى الحبيب
نعم هو ذاك ستعطَى مُناك ... بأوفرِ حظّ وأوفى نصيب
وتهنز بالبَسط[1] في مَرْبَع ... به مرتعٌ للأماني خصيب
وحبسُ الكواعب عيدانها ... وجسّ رباب الغزال الربيب
وتقضي حفوقَ الفؤاد المَشوق ... بخمر يروق وساق أريب
يهزّ من التيه اعطافه ... فتحسبه بانة في كثيب
ونحن عكوفٌ على لهونا ... وليس سوى القبض عنا يغيب

« الريحانة ج٢ ، ص ٢٣٤ »

فالشاعر في هذه الابيات يأسى على أن حبيبه دانٍ منه ولكنه بعيد عنه لانه يهجره ويبكي على أن المحبين ينالون ما يريدون دونه ولكنه يتفاءل بأن هذه الحال ستتغير نم لا يلبث أن يتحدث عن عزف الحسان الكواعب بعيدانهن وضرب غزاله الاهيف على ربابه وعن تناول الخمر واهتزاز أرداف الساقي ويستعمل ضمير المذكر له فلا ندري أيستعمل هذا الضمير على المجاز أو على الحقيقة وان كنا نرجح المجاز لذكره الكواعب في المجلس قبل ، وتنتهي الابيات بانه هو واصحابه عاكفون على لهوهم ولا يغيب عنهم الا القبض الذي استعمله بمعنى الانقباض النفسي في مقابل البسط التي استعملها قبل بضعة أبيات بمعنى السرور والمرح كما تستعملها العامة والأبيات سهلة خفيفة صالحة للغناء وكأنه نظمها ليغنّى بها .

ونرى الشاعر في هذا العصر يجري على عادة الشعراء القدامى في الغزل

---

(١) استعملها بالمعنى العامي اليوم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموافقة لعمود الشعر العربي الاصيل ويبدي تذلّله للحبيب ويرجوه الوصال ، ومثال ذلك قول منجك (١٠٨٨ هـ) :

ألقى فؤادي في أُوار ... قمرٌ يتيه من اسكندار
وأودّ لو علقت بذيـ ... ـل الوعد منه يدُ انتظاري
أتراه يدري بالذي ... فاسيته أم غيرُ دار
أغدو به حيرانَ لا ... أدري يميني من يساري

« ديوان الشاعر ، من الروميّات »

في هذه الابيات وصف لتمنع الحبيب ولشدة تعلق الشاعر به وسعي الى ترقيق قلبه عليه لكثرة ما يقاسيه من أجله . وأجمل ما فيها وصف حيرة الشاعر وضياعه أمام جمال الحبيب وتمنعه حتى لا يعرف يمينه من يساره .

وقد نسب حبيبه فيها الى اسكدار فدلّت على انه تركي على أننا لا نستطيع الجزم بأنه غلام فقد يكون فتاة أو امرأة واستعمل ضمير المذكر له على المجاز .

وها هو دا منجك نفسه في مكان آخر يصف تعلّقه بحبيبه ولكنّه يعنى فيه بوصف جماله الجسدي في أبيات رقيقة تصلح للغناء والرقص :

تناهى عنده الأمل ... وقصر دونه العذَلُ
رشا يفترّ عن برد ... تكاد تذيبُه القبلُ
بخامر عطفه ثمَل ... يَميـ ـل به ويعتدل
يشتّل ما يروق لنا ... بصدغ : خدّه الخجل
فليت به كما اتصلت ... حشاي الطرف يتّصل
اذا ما الخِدْر أبرزه ... تناهب حسنَه المُقل
لفد أغراه في تلفي ... شباب" ناضر خضِل
وقدٌ حشوه هيَف" ... وطرْف" مِلؤُه كحَل

« المنتخب ج١ ، ص ٢٢١ »

وهذه الابيات تمتاز بالسهولة وحرارة العاطفة وتدفق المعاني ولطف الخيال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحلاوة الموسيقا وما أجمل قوله في وصف ثغر الحبيب : نكاد تذيبه القبل • وفي وصف تمايله حين المشي : يخامر عطفه تمَل ••• وقوله في وصف جماله الكلي :

اذا مـا الخِـدْر أبـرزه تناهَـبُ حسـنَه المُقَـل

وأما المقطّعات الغزليه التي أكثروا منها جدا فمثالها قول عبد الرحيم العباسي (٨٦٧ ــ ٩٦٣ هـ) :

ألؤلؤ نظم هـذا الثغـر أم حَبَبُ وفرقَفٌ طعمُ ذاك الريقِ أم ضَرَبُ
وما أراه بصحـن الخِدّ ورّدها[1] أم وجنـةٌ بـدم العشـاق تختضب

« الريحانة ج٢ ، ص ٦٢ »

حشر الشاعر في هذين البيتين عده تشبيهات قديمة ولكنه أحسن جمعها وسبكها بصيغة التساؤل واستعمل التشبيه الضمني المقلوب في البيت الثاني فجعل صحن الخد هو الذي يورد الخمر لا العكس • وفي الشطر الثاني ، معنى جميل ولكنه قديم وهو اكتساب الوجنة احمرارها من كثرة دم العشاق الذي أراقته • ومنها قول نور الدين العسيلي في الخال على الشفة :

كأن الخـال في شـفة الـذي قـد كساني الشـبَبَ قبـل أوان شيبي
قطـاة أفردتْ مـن بـين سِـرب تروم الوِرْد مـن مـاء العُذَيْب

« الريحانة ج٢ ، ص ١٩٩ »

شبه الشاعر الخال على الشفه بالقطاة المنفردة عن سربها التي ترد موردا صافيا عذبا • وقد استعمل اسم التصغير العذيب مكان العذب تلطفا وتظرفا ويريد بالعذيب الفم على طريق الكناية والتورية • والتشبيه في البيتين لطيف موفق ، والمعنى طريف • ومنها قول نور الدين العسبلي :

ذبـت لـه ذؤابـة كحَبّـةٍ مـن خَلفْـه
تَحمِـي ضعيـفَ خصـره مـن خارجـيّ ردفـه

« الريحانة ج٢ : ١٩٩ ــ ٢٠٠ »

---

(١) الضمير يعود الى القرقف اي الخمر .

لعل الشاعر نظم هذه المقطوعة ليشبه ذؤابة الحبيب بالحية الممندة خلفه [illegible] خصره النحيل من ردفه الثقيل الذي برز وراء ظهره . وقد استعار كلمة [illegible] المعروفة في التاريخ الاسلامي بمعنى الثائر على الحكم القائم للدلالة على بروز ردف الحبيب عن سائر جسده كأنه نائر على الجسد واستعار كلمة ضعيف للدلالة على معنى النحافة ليقابل بين الضعف والقوة المفهومة من الخروج ، والثورة ، واستعمل في البيتين معا ما يسمى بحسن التعليل .

ومنها قول نور الدين العسيلي نفسه يتغزل :

كأن الذي أهوى على نفسه جنى	فمال على تلك المحاسن بالفتك
فأغرق خديه بماء جماله	وأوقع في الظلماء ناظره التركي
وألقى بنار الخد خالا كأنه	من المسك مطبوع فناديت يامسكي
وها جفنه يبكي عليه من الضنى	وها خصره من ثقل أردافه يشتكي

« الريحانة ج٢ ، ص ٢٠٠ »

[illegible] الشاعر في هذه الابيات بعده تشبيهات في بعضها غرابة وطرافة كإغراق [illegible] ابن بياض الجمال ويشبه الخال على الخد بالمسك ويجعل جفنه باكيا من نحافته [illegible] باكيا من ثقل ردفه فكأنه يجمع في قده بين نوافر الأضداد . وقد عارض شعراء هذا العهد بعض قصائد سابقيهم أو معاصريهم كما فعل أسلافهم من قبل ومن ذلك الابيات التي عارض بها البهاء العاملي (ت ١٠٣١ هـ) أبيانا لوالده . وهذه ابيات والده :

فاح عرف الصبا وباح الذيك	وانثنى البان يشتكي النحريك
فم نحيا نجتلي مشعشعة	تاه من وجده بها النسّاك
لم يراها المجوس عاكفة	وحدوها وجانبوا التشريك
ان سرّ نحونا سحرة وان	متّ في الصبر دوننا نحيبك

« خلاصة الاثر ج٣ : ٤٤٠ ــ ٤٥٥ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما كافيته فمطلعها :

يا نديسي بمهجتسي أفديسك° قم وهاتِ الكؤوسَ من هاتيك°
خمسرة" ان ضللتَ ساحتها فسنا نسور كأسسها يَهديسك
يسا كليمَ الفسؤاد داوِ بهسا قلبسك المبتلى لكسي تشسفيك
هي نسارُ الكليسم فاجتلِهسا واخلع النعل واترُكَ التشكيك°
صاح ناهيسكَ بالمُسدام فدُمْ في احتساهسا مخالِفاً ناهِيسك°

ومنهسا :

لسست أنساه اذ أتسى سحرا وحسده وحسده بغسير شسريك
طسرق البساب خائفسا وجِسلا فلت من ، قال : كلُّ ما يرضيك
قلتُ صرِّح فقال تجهلُ مسن سسيفُ ألحاظسه تحكّمَ فيك
قال : خذها فمُذْ ظفرتَ بهسا قلتُ : زدْني فقسال لا وأبيك
ثم وسّسدتُه اليسسينَ إلسى أنْ دنا الصبحُ قال لي: يَكفيك°
قلتُ مهسلا فقال : قمْ فلَقد° فاح نَشرُ الصِّبا وصاح الدِّيك°

« سلافة العصر ٢٨٩ ، وخلاصة الاثسر ج٣ : ٤٤٠ ، والريحسانة ج١ : ٢٠٩ »

كل من الأبيات المعارَضة والمعارِضة جميسل وأبيات الابن أجمل في رأينا من أبيات الأب • وهي أكثر بسطا في الحسوار وفي أداء المعاني وأحفل بالفنون البديعية وقد ختمها بشطر بدأ به أبوه أبياته ولم يغير فيه الا كلمة « عرف » التي استبدل بها كلمة « نشر » •

وكل من الأب والابن مزج الغزل بالحديث عن الخمر وكان الابن أكثر استفاضة في الغزل وأكثر واقعية •

وقد أورد الخفاجي للبوريني الابيات التالبه على أنها أسلوب من أساليب الفصاحة لطيف بيّنه في كتابه « حديقة السحر » وهو نَقْل الكلام من طريق الى آخر • كاستعمال ما عُهِد استعماله في الدعاء والمناجاة في التغزل :

إلهي أدِمْ حاكمَ الحب فينا ... مُطاعا وكلَّ البرايا أسارى
إلهي وزد ذلك القدَّ لينا ... وأشرِبْ سقيمَ الجفون العُقارا
إلهي على ضعف أهل الهوى ... أنِلْ لحظَه في القلوب اقتدارا
إلهي جنودَ الهوى أعطِها ... على قوة الصابرين انتصارا
إلهي على الحب ألفيتُ صبرا ... وعن حُسْنه ما أطقت اصطبارا
إلهي أجبتُ رسولَ الهوى ... ولم ألقَ منذُ دعاني اختيارا
إلهي رضيتُ بما ترتضي ... بسرّي وسلَّمتُ أمري جِهارا
إلهي لي الجَبْر فيما ترى ... وانْ ظنّه العاذلون انكسارا
إلهي أعِدْ ليلَ هُجرانِه ... وصبحَ الوفا بالتلاقي نهارا

« الريحانة ج١ ، ص ٤٧ »

والحقيقة أن في هذه الابيات جدة ، في الروح والاسلوب والمناجاة العذبة • والعاطفة فيها سخية حارة ، وهي جديرة بأن يتكلم عليها طويلا فتوفّى حقها • واختيار الخفاجي لها وتعليقه عليها يدلان على حسن ذوقه • وقد أكمل تعليقه بقوله : ومثله قول ابن الوكيل :

يا ربِّ جفني قد جفاه هجوعه ... والوجد يعصي مُهجتي ويُطيعُه
يا ربِّ قلبي قد تصدّع بالنوى ... فإلى متى هذا البعادُ يروعه
يا ربِّ في الأظعان سار فؤادُه ... يا ليتَه لو كان سار جميعُه

« الريحانة ج١ ، ص ٤٧ »

وهذه الأبيات على قلّتها ليست دون الاولى جودة ولكنها أقصر نفَسا وأقل غنى وهي أسبق قولا وأظهر ابتكارا • فهي ترجع الى العهد المملوكي الاول •

وقد استعمل شعراء هذا العهد الرباعيات في الغزل ومنها هذه الرباعية للشهاب الخفاجي في معنى قديم جديد :

غُصْن غضٌّ له المَعاني ثَمَرُ
يَجْني فيظَلُّ دائما يعتذِرُ

لـم ألـقَ شـبيهَ وجهِـهِ في أحـد
إلا المِـرآ صفَـتْ وفيهـا نَظَـروا

« الريحانة ج٢ ، ص ٢٠١ »

لقد جعل هذا الشاعر الحبيب غصنا غضا يثمر المعاني الجميلة ويسيء دائما الى المحب ويواصل الاعتذار ولكن يحق له الدلال لانه لا شبيه له الا نفسه حين ينظر في المرآة • والمعنى طريف غير مبتذل ، ولكنّه قد سبق اليه آخرون •

الشعر في الخمر والحشيشة والغنـاء

وصف الشعراء في هذه العهود الخمرة على غرار أسلافهم واهتموا بوصف مجالسها وما قد تضمّه من غناء وعزف وما يحيط بها من إطار جميل من الطبيعة وما يرافقها من متعة ولهو • وتحدث بعضهم في شعره عن الحشيشة مستحسناً مضغها أو مقبحاً • وظهر لونان جديدان في هذا المضمار لم يكونا معروفين قبل هذا العهد : أحدهما الحديث عن قهوة البن وما فيها من متعة وما دار حولها من أقوال التحليل والتحريم ، والثاني الكلام على الدخان وتحريمه أو اباحته وما يكون في تناوله من لذة •

فأما الخمرة فأحسنُ من قال فيها خلال هٰـذا العهد شاعران متعاصران صديقان أحدهما منجك (١٠٠٧ ــ ١٠٨٠ هـ) والثاني ابن النقيب (ت ١٠٨١ هـ) وبين الرجلين أوجه التقاء كثيرة •

فأما منجك وهو أسبق ولادة وأطول عمرا فقد أضاع ما ورثه عن أبيه في اللهو ولما عضت به الحاجة لم يجد حوله أحـدا يساعده أو يسعفه من إخوان الصفاء السابقين فسافر الى بلاد الروم (الترك) يبغي الفرج فآب خائبا وانزوى في بيته •

وأما صديقه ومعاصره في النصف الاخير من حياته ابن النقيب فقد اخترمته المنية شابا ولم تتح له أن يقدم كل عطائه الفني شعرا ونثرا وقد كانت تباشيره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جيده بل رائعة أحيانا لا في وصف الخمرة فقط ، بل في وصف الطبيعة والغزل أيضا .

يمزج منجك الغزل بالدعوة الى الخمرة واللهو والسرور أحيانا وذلك في مثل قوله :

وافى الربيع فما عليك بعار ... خلْعُ العذار ولا ارتشافُ عُقار
صهباءُ ليس يجوز عندي مزجُها ... إلا بريقة شادنٍ مِعطار
تدَعُ الدجى صبحا اذا هي أبرزتْ ... فكأنما اعتُصرت من الأنوار
قم هاتِها حيث الهَزارُ قد اغتدى ... في الأيكِ منعكفا على التَّهْدار
طير" أعاد الغصن جَنْكا رُكّبتْ ... أوتارُه من فِضة الأمطار
وتبثّه ريحُ الصَّبا ويبثّها ... ذكر الهوى من سالف الأعصار
فانهض لنغتنمَ الشبيبة قبل أنْ ... برمي المشيبُ الصفوَ بالأكدار
واشرَبْ على وَرْد الربى إنْ لم تجد ... ورد الخدود لقلّة الدينار
وانصِبْ بفكرك في الهوى شَرَك المُنى لوقوع ظلٍّ أو خَيال سار
هذا ولستُ أرى اذا فُقد الذي ... أهوى جِنان الخلد غيرَ النار
هيهاتِ ما النايُ الرخيم ونشوة الـ ... ـخمر القديم ونغمةُ الأوتار
وحنينُ هينمة الرياض عشيّةً ... وتراسُلُ الأطيار في الأسحار
عندي بأحسنَ من مُساجلة الأحبّة بالصبابة في سنا الأقمار
من كل معبودِ الجمال محكّمٍ ... فيما يشا مستعبِدِ الأحرار

« الريحانة ج١ ، ص ٢٤٥ »

يريد منجك في هذه الابيات أن يطلق خياله وراء الصور المحببة اليه وفكره بأن يساجل أحبته فيما تستعبد به الاحرار من الكلام الجميل وهو يراعي واقعه الفقير فان لم يتح له لفراغ كيسه أن يشرب على ورد الخدود فليشرب على ورد الربى .

وتنطق الابيات بغرام الشاعر بالمتع المعنوية والحسية وبحبه اغتنام زمن الشبيبة وفرص الاستمتاع قبل أن يكدر صفوه ظهور المشيب في رأسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتبدو فيها شدة احساسه بالجمال وولعه بالشراب والاستمتاع بالجمال الانساني ونراه لا يكتفي بالنشوة بجمال الربيع ومعاقرة الخمر وارتشاف ريق الحسان بل يضيف الى ذلك كلـه نشوته بسـحر غناء الاطيار في هيكل الطبيعة الشجراء وهو اذ يشمل بهذا الجمال كله المنظور والمسموع والمتذوق والمشموم والملموس فيشرك فيه حواسّه الخمس يتخيّل أنّ الخمر قد عصرت من الانوار ولذلك هي تحوّل الليل الى نهار ، وأنّ الأغصان قد تحوّلت الى عود صُنعت أوتاره الفضية من قطرات الامطار . وقد دعا الى اغتنام الشرب دعوة خيّامية في قوله :

فانهـض لنغتنـم الشـبيبة قبـل أن
يرمـي المشـيبُ الصفـوَ بالأكـدارْ

فدلّ على روح تشاؤمي عنده يدعوه الى مسابقة الزمن بانتهاب اللذة لانه يترقب أن يُنزل بـه شروره . ومن هـذا القبيل قولـه :

قـم هاتِهـا فانتهـابُ العيـش مغتنَمُ
مـن كـفّ معتـدلٍ في خـير إنسـان

حيثُ الرياض اكتسـت من سندس حـللاً
وتُوّجـت بيواقيـتٍ وعُقيـان

« خلاصة الاثر للمحبي ٤ : ٤٠٩ ، والديوان »

ففي هذين البيتين يستسقي الخمر في مربع الرياض السندسية ومن يد ساق جميل معتدل القوام ولكنه يشعرنا في الوقت ذاته أنـه بتنهب لذّاته وبغتنمها لانه ليس واثقا من دوامها .

وقد ينسى كل شيء إلا الانصراف الى لذته والإشادة بها ومن ذلك قوله يصف مجلس خمر دام حتى الصباح وتجاوب فيه عزف الناي مع تغريد الطير :

وروضـةٍ أنس بـاب فيها ابـنُ أيْكـةٍ
يغـرّد والنـايُ الرخيـمُ يُنـنّفُ

فظلّتْ عرانينُ الأباريقِ بالطّلا
إلى أن بدت كافورةُ الصبح ترعُف

« الريحانة ج١ ، ص ٢٥٤ »

وجميل جدا تشبيهه بداية ظهور الصبح بكافورة تنقط فوق الكون قطرات كما يرعف الدم من الأنف . ولكن هذا التشبيه جميل شكلا سيء ايحاء لأنه يشعر بالضعف والمرض وقد يدعو الى التشاؤم والنظر الى الدنيا بمنظار أسود ، ولكن الشاعر حين نظم الابيات كان في حقيقة نفسه متشائما .

وقد لا يكتفي منجك بوصف الخمر ، بل يصف الساقي ويشبه خديه بالورد والخمر فيقول :

هبّ يجلو الراح في كأسِ اللجين
فاترُ الالحاظ خالي العارضيْنْ
وتحسّى وسقانا قهوةً
مُزجت مِن ماء ورد الوجنتيْنْ

« المرجع السابق نفسه »

والمعاني في هذين البيتين مألوفة ، بل تكاد تكون مبتذلة ولكنها جميلة لانها دائمة متجددة على الزمن وقد لا يمل الانسان من تكرارها ، ولعلّ صلاح البيتين للغناء ، ووصف الساقي بأنه تحسّى الخمر قبل أن يسقيها الشاعر وصحبه ، قد عدّلا من ألفة المعاني وابتذالها وجعلاها قريبة من القلب .

وقد يمزج بين الاستمتاع بكأس الخمر وريق الثغر كقوله :

نبه جفونَك من نُعاسِك ْ واسمحْ بريقِك أو بكاسِك ْ
طابَ الصبوحُ فهاتِها واشربْ معي بحياةِ راسِك ْ

« الريحانة ج١ ، ص ٢٥٠ »

وفي هذين البيتين إيجاز جميل مُوحٍ وفيهما أثر" من اللغة الواقعية الشعبية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التي لا نزال نستعملها في عاميّتنا اليوم ، وهو استحلافه الساقي بقوله : بحياة رأسك • وفيها استباحة إحدى اللذتين : الريق ، أو الكأس ، أو اللذتين معا •

وقد عني منجك الى جانب الخمر بوصف متعته وملذاتـه وما يتصل بها • قال يعجب بربوة دمشـق ويشبه غنـاء أطيارهـا بالعزف على الدف والجنك :

أربوتنـا حيّتـكِ عنـا السـحائبُ
فأنـتِ لوجـه الأرض عـينٌ وحاجِبُ
فأسـودُكِ الغرّيـدُ بالـدّفّ مولَعـا
تبـدّت لنـا بالجنـكِ منـه عجائـبُ

« خلاصة الاثر للمحبي ج٤ ، ص ٤٠٩ »

ونرى في البيتين قوة شعور منجك بجمال المنظورات وجمال المسموعات معا وشدة تعلقه بجمال « الربوة » في دمشق كغيره من الدمشقيين ومن يزورون دمشق من خارجها وهو ينسبها الى نفسه وأهل بلده فيقول « أربوتنا » ويجعلها عين الارض وحاجبها أي أحسن شيء فيها • ثم ينسبه تغريد بلابلها وسائر أطيارها بنغمات الدف والجنك[1] وهما آلتان موسيقيتان معروفتان • ويوري بالجنك عن مكان جميل معروف فيها • وتحمله شدة حبّه للهو على أن يأسى على بعض مجالس لهوه الخالية في أحد القصور المنجكية في دمشق :

قصرَ الأمـير بوادي الرقمتين سـقى ... رُباكَ عني من الوسـمي مِـدرارُ
كَمْ مرّ لي فيـك أيام" هواجرُها ... أصائِـل" ولياليهـنّ أسحـارُ
حيـثُ الشبيبةُ بكـر من غضارتها ... وللصبابـةِ أحـلاف وأنصـارُ
حيـثُ الرياض تغنيني حمائمُها ... بالدف والجنك والمنثورُ لي جـارُ
حيـثُ الخمائلُ أفـلاكٌ" بها طلعـت ... زُهْرٌ" من الزّهْر والندمانُ أقمـار
حيـث المُدامةُ رقـت في زجاجتهـا ... يديرهـا فاتـن الأجفـان سـحّار

(١) الجنك ، العود ، ومكان في دمشق يورّى به هنا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ياقوتةٌ أفرغت في قشر لؤلؤةٍ فلاح للشّرب منها النّور والنار
متوّجَ الراح بالإبريق ذا قُرطٍ مثلِ الهلال له الجوزاءُ زنّار
يسقي وأسقيه من ثغر ومِنْ قدَحٍ الى الصباح فمِرباح ومِخسار

« الريحانة ج١ ، ص ٢٤٥ »

وهذه الابيات الرائعة لا تقلّ جمالا عن أجمل أبيات أبي نواس في الخمر والساقي وهي تتصل بنفس منجك وحياته اتصالا وثيقا صادقا فنراه يأسى على قصر آبائه وأجداده الذي كان يحب أن يبقى له ويأسى على أيام ولياليَ قضاها فيه فيشبه هواجر أيام الحر بالاصائل لكثرة ظلالها ويشبه الليالي بالاسحار لجمالها ويصف تلألؤ الاضواء فيها وحسن استمتاعه بلذاتها وبرفة جمال الطبيعة وغناء الحمائم وطيب محادثة الندمان ، ثم هو يحنّ الى عهد شبابه العزيز الذي كان فيه وافر العز والتكريم ويرثي استمتاعه فيه بالخمر كأنها الياقوتة أو النورُ والنار وبالساقي الجميل الساحر ويشبهه بالقمر ويشبه زناره بالجوزاء ويصف تساقيه معه الخمر والريق حتى الصباح فمرة يأخذ منه ومرة يعطيه فكان كل منهما مرباحا ومخسارا في الوقت ذاته .

ان هذه الابيات أكثر من ذكرى لدى الشاعر ، إنها رثاء الشباب العزيز المرح الذي فقده الى الابد فهو يبكي عليه بدموع العين ودموع القلب .

ونجد بين هذا الشاعر وبين ابن النقيب نقط تشابه وتلاق كثيرة فقد وصف ابن النقيب الخمر والكأس والساقي والنديم وكانت دواعيه للخمر كثيرة : الطبيعة الدمشقية والحانات والأديرة والجمال والفتنة والصبا والشباب والربيع والفراغ والغنى والمكانة الاجتماعية .

وله قصائد خاصة بالخمر ومجالسها وهي مطبوعة بطابع ذاتي ويجمع فيها بين وصف الطبيعة والخمر وبين الغزل .

وكان لابن النقيب مجالس جد الى جانب مجالس اللهو وقد وصف مجلسا له عند بعض أصحابه الأدباء فقال :

نحن في روضة من الآداب ... سُقيتْ بالفُهوم لا بالسحاب
ضمّنا مجتلى عرائس أفكا ... رٍ جلتها قرائحُ الألباب
وألذّ القريض ما كان غضّا ... مستجدّاً قريبَ عهدِ الشباب
فاسقِ منه شَرْب المَسامع كأسا ... لبني العصر زائدَ الإطراب
أنا في حانة القريض فما لي ... لا أرى دفتراً شهيَّ الشراب

« الديوان ص ٣٨ »

وقد أظهرنا ابن النقيب في وصف هذا المجلس على الجانب الاخر الحلو الجادّ من حياته وشبّه فيه خمر الآداب بخمر الأعناب وأبدى رأيه في الشعر الجيد وهو عنده ابن القريحة الذكية المبتكرة ، الغضّ الجديد الذي لم يتخلّقه القِدَم والابتذال ، الملائم لذوق عصره وأحواله .

ونراه يصف مجلسا أدبيا آخر بالسرف المطلّ على مرج دمشق الأخضر فيقول :

يا حبّذا منزلٌ ومرتبعٌ ... طاب لنا اليومَ فيه مجتمَعٌ
في معشر لم تزل مآثرُهمْ ... تُتلى بأوج العُلا وتُستَمَع
فهمْ لِطيب الجُدود قد نزَعوا ... وفي رياض العلوم قد رتعوا

« الديوان ص ١٩٥ »

وفي هذه الابيات الثلاثة يبين لنا ابن النقيب رأيه في الاصدقاء والندامى المثاليين في مجالس الجد فهم الذين يجمعون بين كرم النسب وسعة الثقافة ولا يكتفون بأحدهما .

وقد حمله ولعه بالغناء على نظم قصيدة طويلة يؤرخ فيها للغناء والمغنين منذ بدء العصر الأموي حتى آخر العصر العباسي وتكاد تكون ملحمة فنّ الغناء في الادب العربي . ونكتفي منها بالابيات التالية على سبيل المثال :

كلّما جدّد الشجيُّ ادّكارَهْ ... أزعجَ الشوقُ قلبَه واستطارَهْ
ليتَ شعري اين استقلّ عن اللّهـ ... ـوِ بنوه وكيف أخلَوْا مَزاره

بعد ما راوحتهم صفوة العيـ ـشِ ونالوا طوع الهوى أوْطار
وجرَوْا في مطارد الأُنس طلْقا واجتلَوْا من زمانهم أبْكار
بين كأس وروضة وغديرٍ وسَماع ولذّةٍ وغَضار
أين حلّوا فمعشَبٌ ومَقيل أو أناخوا فموردةٌ وبَهار
من مليك زَفّت بحضرته الكأسَ قِيانٌ يعزفن خلف الستار
ووزيرٍ قد بات يسترق اللذاتِ وهنا والليل مُرْخٍ إزار
وأميرٍ ممنطَقٍ بندامـا ه وكأسُ الطّلا[1] لديهم مُدار
كم فتى من بني أميّة أمسى وخيولُ الهوى به مستطار
كيزيدٍ وشأنِه معْ أبي قيـ ـسٍ وما قد عراه في عمّاره[2]
وندامـاه كابن جهدة والأخـ ـطل اذ عاقراه صفواً عُقار
وقضى ليله مع ابن زياد وقُتيبٍ بنِ مسلم ونهارَه[3]

« الديوان ص ٢٠ »

ويبدو لنا ان الشاعر قد نظم هذه القصيدة ليبدي إعجابه بفن الغنـ وبالمغنين المشهورين لأنّ فن الغناء قد أخذ عليه لبّه في مجالس لهوه وفي غيره فأحب أن يؤرخ لهذا الفن تأريخا يبتعد به عن جفاف العلم ويمزجه بحلاوة الادب وطراوة العاطفة وغضارة الخيال وجمال المعاني وحسن التعبير وقدّم لنا بذلك وثيقة قيمة في فن الغناء العربي . ونرى وراء هذه الملحمة شيئا فنيا نفسيا آخر لدى الشاعر هو أن يجد لنفسه العذر أمام نفسه وأمام الناس في الاستمتاع بالغنا والاعجاب بالمغنين والمغنيات وحب بعضهم والاستمتاع بمجالات اللهو المختلفة فانه كان مرموق المكانة في مجتمعه وربما استنكر بعض الناس لهوه ومرحه فأحب أن يخبرهم أو أن يذكّرهم بأنّ عظماء الملوك والخلفاء قد سمعوا قبله وطربوا وأحبوا وعشقوا ولهَوا وشربوا وثملوا وكانوا على ذلك عظماء وبقَوا كذلك .

---

(١) الطلا : اصلها الطلاء بكسر الطاء وهي ما يطبخ من عصير العنب ويكنى به عن الخمرة . والطّلى بكسر الطاء والالف المقصورة : اللذة .

(٢) ابو قيس : قرد ليزيد بن معاوية كان يلهو به وقت شرابه . وعمارة اخو الفريض المغني كانت من اجمل النساء وجها وغناء .

(٣) مسلم بن زياد : نديم يزيد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد كان الشاعر من خلال خمرياته وغنائياته يجمع في إطار واحد بين الطبيعه والغزل والخمرة جمعاً تظهر فيه وحدة ذاته ووحدة تجربته الشعورية الجمالية التي تنظر الى مراتع الجمال ومنعة الحس نظرة كلية واحدة وتجمع بينها في إطار نفسي واحد يتمّ فيه التآلف والتوحد ولذلك كان شعره في هذه الموضوعات عذبا بعيدا عن التصنع .

شـــعر الحشيشة

بقي الناس في هذا العهد يتناولون الحشيشة وظل الشعراء فيها مولعين بها أو ناقمين عليها وعلى من يتناولها ولعل الولع بها كان أقل مما كان عليه في العهدين السابقين ولعل النقمة عليها كانت فيه أشد .

ومن الشعر المزري بها ما قالته زينب بنت الشيخ رضي الدين الغزي تنصح محمد بن احمد المعروف بابن أبي الجود بعدم أكل الافيون وهو قريبُها (توفي سنة ٩٨٢ هـ) وقد قالته في شكل مواليا :

يا ناصِرْ الدْين يا ابنْ الكِشكْ يا ذا الجودْ
اسمعْ أقـــولْ لكَ نصيحة تطـــرب الجلمودْ

بسّكْ تعاني اللبَـــنْ فهمّكْ هـــو المقصودْ
يصـــيرْ بالَـــكْ ومالَـــكْ والذكـــا مفقـــودْ

« الكواكب السائرة ج٣ ، ص ٥٣ »

وقد استعملت زينب فن المواليا لتنصح قريبها بترك الافيون ونراها استعملت العامية في نظمها ، واستعمالُها عريق في فن المواليـــا .

وكان البوريني (٩٦٣ ــ ١٠٢٤ هـ) في مبدأ أمره لا يتناول شيئا من المكيّفات وقد قال لما رأى إكباب الناس على البَرْش وهو الأفيون :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عمّ البلاء بأكل البرشِ فانتقعتْ مخايلُ الناس في خُلْق وأخلاقِ
ولو نصوّر هذا الدهرُ في رجُل لأبصرتْه الورى في زيّ درياقِ

« خلاصة الاثر للمحبي ج٢ ، ص ٢٥١ »

ثم ابتُلي بأكله حتى ظهر في فعله وهيئته وحركته الا أنه لم يغير من ذكائه ونوادره • ذكر المحبي من لطائفه التي رآها بخطه انه سئل عن الحب هل هو بالكسر أو بالضم فقال هو بالكسر ويستحسن فيه الضم • وعن الجفن أهو بالكسر أو بالفتح فقال هو بالفتح ويستحسن فيه الكسر • ويدلّ هذا على حضور بديهته •

وكان القاضي ابن الجيعان[1] يتناول الحشيشة والخمر ، فأنشده الشهاب الخفاجي (١٠٦٩ هـ) مداعبا :

لا تبك هندا ولا تعتب بأسماءِ
واصرف زمانكَ في لهوٍ وأهواءِ

يوما ببَرْشٍ ويوما بالحشيش وبالـ
أفيونِ يوما ويوما كأسِ صهباءِ

« الريحانة ج٢ ، ص ١٨٣ »

وهذان البيتان يدلاننا على أن بعضا من علية القوم حينئذ كانوا مولعين بالحشيشة مع الخمر •

شعر قهوة البن

وقد عرف هذا العهد ما يسمى ببيت القهوة (بمعنى المقهى) • وكانوا

---

(١) كان معاصرا للشهاب الخفاجي وصديقا له وهو من اسرة اشتهرت في مصر ، وكان كريما حسيبا اديبا . وكان لا يحسب من عمره غير أوقات صفوه ولذّته ولهوه . وقد ترجم له الخفاجي في خبايا الزوايا لوحة ١٥٦ ب ، والمحبي في خلاصة الأثر ، ج١ ، ٣١٠ . « عن الريحانة ج٢ ، ١٨٢ وحاشيتها و ص ١٨٣ » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يذهبون اليه لشرب القهوة التي اختلف في تحريمها حينئذ . وكان من أنصارها الشيخ أبو الفتح الذي نظم أبياتا في الاشادة بها . وكان من أعدائها يوسف العيناوي . وقد اختلفوا فيها بين التحريم والتحليل .

وكان بيت القهوة يجمع بين جمال المكان وجمال الساقي والماء الجاري .

(من معجم القرن الحادي عشر ، عن مقال للاستاذ شفيق جبري من وحي قراءته لكتاب تراجم الاعيان للبوريني ، نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد ٤٢ ، ج٣) .

كانت قهوة البن في بدء اكتشافها واستعمالها في الدور الاول من هذا العهد . لذلك نرى الفقهاء والشعراء يختلفون فيها بين التحريم والتحليل . يقول فيها علي جلبي الحمصي وهو ممن تُوفوا في الثلث الاخير من القرن العاشر الهجري :

أقـول لاصحابـي عن القهـوة انتهُـوا
ولا تجلســوا في مجلـس هـي فيـهِ
وما كـان تَرْكـي شـربَهـا لكراهــة
ولكـنْ غدت مشـروبَ كـلِّ سـفيهِ

قال النجم الغزّي بعد هذين البيتين ، وهذا قريب من قول أبي السعود مفتي الروم وقد سئل عن القهوة : « ما أكبَّ أهلُ الفجور على تعاطيه ، لا يحسُن ممن يخشى اللهَ ويتقيه » .

« الكواكب السائرة ج٣ ، ص ١٩٦ »

وقال أبو المواهب البكري يصف القهوة والفتاة الساقية في مجلس ببولاق على النيل ، ويبدو لنا من خلال أبياته أنَّ شاربيها في بيت القهوة كانوا يحتفلون بشربها كالخمر :

يا يومَ بُولاقَ وأُنْسي بـهِ حكاكَ مَن شوّالَ يومُ الهِلالْ
واقبـل النيـل جَنوبـا ، وما من عارضٍ إلا نسـيمُ الشمال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يا عارضا اوجب للنّيل ما ... سلسله ، وهو طليق المَجال
وقهوةٍ تنضح مسكا ، ولا ... بِدْع، ففي الفنجان شكلُ الغزال
حَبابها من فوقها مانعٌ ... نفارَه ، فهو شِباك السلالْ
نديرُها هيفاءُ ممشوقةٌ ... خَوْدٌ تثنّتْ في بُرود الدلال
كاد حِجا من أقبلت نحوَهُ ... يذهب من رنّات تلك الحِجال
بغرّة أو طُرّة وزّعت ... أفكارَنا بين الهدى والضلال
تقول للشمس ، وقد أقبلت : ... تلثّمي ، ما أنتِ إلاّ خيالْ

« المنتخب ج١ ، ص ٢٢٤ »

يصف الشاعر البكري مجلس القهوة على النيل في وقت اختلف فيه الفقهاء في تحليلها وتحريمها ونرى أن الشاعر يستحلّ شربها ويشربها في محراب الطبيعة على النيل ويصفها ويصف فنجانها والفتاة الساقية وصفا جميلا شيّقا طغى فيه وصف الحسناء على وصف القهوة .

وقد خمّس محمد بن أحمد بن أبي الجود (ت ٩٨٢ هـ) المشهور بابن الكشاش وبابن ابي الحِبَل ، أبيات البكري في القهوة فمما قاله :

كم قلت والصدق غدا مبهتا ... أما تخاف الله حتى متى
رغما به فيما به قد أتى ... يا قهوةً تُذهب همَّ الفتى

انت لِقاري العلم نعْمَ الزادْ

ويحكَ كم تذكرها بالجفا ... معانِداً أهل الوفا والصفا
ونفعُها بين الورى ما خفَى ... شرابُ أهل الله فيها الشفا

لِطالب الحكمة بين العبادْ

يا طيبَها فيها الهنا والمُنى ... وتُذهب البؤس وتنفي العنا
ومن سنا ما تحتوي أنّنا ... نطبُخها قشرا فتأتي لنا

في نكهة المسكِ ولونِ المِدادْ

« الكواكب السائرة ج٣ ، ص ٥٤ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولابراهيم بن المبلّط (الذي كان حيا سنة ٩٩١ هـ) في قهوة البن محبّذا شربها :

يقول عذولي قهوة البُنّ مُرّة ... وشربة حُلْو الماء ليس لها مِثْل
فقلت على ما عابتَها ببراره ... قد اخترتُها فاخترْ لنفسك مايحلو

وقال فيها أيضا :

أرى قهوة البنّ في عصرنا ... على شربها الناس قد أجمعوا
وصارت لشرّابها عادةً ... فليس تضرّ ولا تنفع

وقد شهر عنه قوله :

يا عائبا لشراب قهوتنا التي ... تشفي شفاء النفس من أمراضها
أوَما تراها وهي في فنجانها ... تحكي سواد العين وسطَ بياضها

وذكر الغزي (٩٧١ ــ ١٠٦١ هـ) صاحب الكواكب السائرة أن لبعضهم في هذا المعنى :

اشرب هنيئا قهوةَ البُنّ التي ... تحلو من الإخوان والخلانِ
سوداءُ في المبيضّ من فنجانها ... تحكي سوادَ العين للانسانِ

ثم قال الغزي ، وأحسنُ منه قولي :

اشرب من القهوة صاعيْنِ ... ولو ببذْل الوَرْق والعَيْنِ
سوداءُ في بيضِ فناجينها ... كأنها الإنسانُ من عَيْنِ

« الكواكب السائرة ، نجم الدين الغزي ج٣ ، ص ٩٣ »

وتدلّ هذه المقطوعات على ولع الناس بهذا المشروب الجديد في ذلك الوقت .

وقد أبطل السلطان مراد المقاهي (القهوات) ومنع تناول (شرب) التبغ .

« المحبي ، خلاصة الاثر ج٤ ، ص ٣٣٩ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعر في التدخين

وكان التدخين أمرا مستحدثا جديدا في الدور الثاني من هذا العهد زمن ابن النقيب الدمشقي (١٠٤٨ ــ ١٠٨١ هـ) وقد أثار استعماله ضجة بين الناس والفقهاء واختلفوا فيه بين تحريم وتحليل ومضى من أولعوا به واعتادوا عليه يتلذذون به لا يلوون على شيء .

قال ابن النقيب يصف النارجيلة وشدة ولعه بالتدخين :

أعددتُ للتبغ وترشافه ... نبعةَ حُسْنٍ كُلِّلتْ بالجُمانْ
ما قصباتُ السَّبْقِ إلاّ لها ... في حلْبةٍ حلّتْ محلَّ السِّنانْ
قد زُخرفتْ من بَعدِ ترصيعها ... ولا يلي الزخرُفَ إلاّ الدخانْ

« الديوان ص ٢٨٢ »

فهذه الأبياتُ الثلاثة تظهر ولَع ابن النقيب بالتدخين واهتمامه بوصف النارجيله ونوابعها وما نقش عليها من زخرفة وترصيع واقتباسه اسمي سورتين من القرآن هما الزخرف والدخان ليورّي بهما ويحلّي كلامه .

ومما اشتهر للكوراني[1] معاصر ابن النقيب الحلبي قولُه في التبغ :

لقد عنّفونا بالدخان وشربه
فقلت : دعُوا التعنيف ، فالأمر أحوجا

ألا إنّ صِلّ الغمّ في غارِ صدرِنا
عصانا فدخّنّا عليه ليخرُجا

هكذا برّر الكوراني تناول الدخان بانه يذهب الغم واستعمل هذا التشبيه الذي جعل فيه الغم كالثعبان الذي يدخن عليه الحاوي أو الساحر ليخرجه من وكره . والخبال لطيف خفيف الظل .

---

(١) تجد ترجمته في خلاصة الأثر للمحبي (ج٢ ، ٣٥٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأوزان والقوالب الشعرية القديمة والمستحدثة :

تابع شعراء هذا العهد أسلافهم من شعراء الدول المتتابعة في النظم على بحور الشعر التقليدية ، والخروج عليها أحيانا الى استعمال بعض البحور المستحدثة كبحر السلسلة والقوالب الشعرية المستحدثة كالموشحات والأزجال والمَوالا والدوبيت •

ولدينا الآن أبيات" على بحر السلسلة قالها أحمد السابق الأديب (المتوفى سنة ١١٦١ هـ) يتغزل في أولها ويمدح النبي في آخرها • ووزن هذا البحر فعلن فعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، مرّتين •

وبعتري هذه التفعيلات المستقاة من عدة بحور عده تغييرات تعتريها عاده في بحورها الاصلية ، واليك هذه الأبيات :

مـن غرّك بالصـد للحـبّ واغـراكْ
نرمـي بسهـامٍ عـن اللواحـظ فتّـاكْ

يا ظبـي كِناسـي ويا خلاصـة ناسـي
كـم عهديَ تنسى وليس قلبـي ينسـاكْ

يـا نِعْمَ جليس" ويـا أعِزّ أنيـسْ
لا عـاش عَـذول" عـلى تلافـي ولاّكْ

يا سـالبَ لُبـي ويا حُشـاشـة قلبـي
ما تكشفُ كربي بطيبِ سـاعةِ لُقيـاكْ

لقيـاك مَرامـي وفيـك زادَ هُيـامي
ارحَم لِسَـقامي ودَع لِعـاذلٍ ينهـاكْ

أصبحـتُ وحالي مِن الصدودِ عجيـبْ
هل منك مُجيـب" يفك عُقدة أسـراكْ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قـد رُدْتُ بنجبي وما درى بـي صحبي
لا تحـرِقْ قلبـي فـإنَّ قلبـي مأواكْ

أشـمَتَّ حسـودي وقد نقضتَ عهودي
وزدت بصـدّي وبات طـرفي يرعـاكْ

با خـيرَ نبيٍّ لـه الفضـائـلُ تعنـو
قد حزتَ فَخـارا وقد أعزّكَ مـولاكْ

با صفـوةَ ربـي عَسـاكَ تجبُر قلبـي
إذْ مدحُك دأبي أريـد وصفَ سجاياكْ

لا أقـدِرُ أُوفي ببعـض بعضِ مَديـحٍ
في بـدرٍ مَليـحٍ لـه المَحامد أفـلاكْ

« سلك الدرر للمرادي ج ٢١ ، ص ١٨١ ـ ١٨٣ »

وهذا الوزن لا يتلاءم كثيرا مع الذوق العربي الذي ألف البحور الستة عشر التقليدية . يضاف الى ذلك عدم ترابط الابيات وانقطاع الصلة المنطقية بينها الا فيما يتعلق بموضوعها الذي هو الغزل ، وهي ركيكة ضعيفة التأليف ، باهتة العاطفة مبتذلة المعاني قليلة الصور ، ضعيفة النفحة ، وتنتهي بالمديح النبوي .

ومن مظاهر الصناعة المغرقة في التكلف لدى بعض الشعراء في هذا العهد نظم القصائد المتعددة الأوزان والقوافي والقراءات . ومنها قصيدة لابن معتوق[1] (١٠٨٧ هـ) اخترنا منها :

فخـر الـورى حيـدري عـمّ نائلـه
فجر الهدى ذو المعـالي الباهـرات عـلي

(١) هو شهاب الدين الموسوي الحويزي من اهل البصرة . كان فقيرا . له ديوان مشهور طبع مرارا في الاسكندرية والقاهرة وبيروت اكثره في مدح السيد خان ابن كمال الدين الموسوي . وهو مشهور برقته . عن « تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان ، ج٣ ، ص ٢٨٠ » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نجم السهى فلكيات مراتبه
بادي السنا نيّر يسمو على زُحَل

لثتُ الثرى عبسَ نَهمي أناملُه
غبنُ الندى مَورد أنسهى من العسل

بدرُ البها أفُقٌ تبدو كواكبُه
شمسُ الدُّنى صبحُ ليل الحادثِ الجَلَل

سامي الذُّرا صاعدٌ تُختسى نوازلُه
حتفُ العِدا ضاربُ الهامات والقُلَلِ

طودُ النُّهى عند بيت المال صاحبه
سمط الثنا زينةُ الأجياد والدول

عن « د. بكري شيخ أمين ، مطالعات في الشعر المملوكي ص ٢٠٣ »

وانما ساعد على النظم في هذا النمط ذي القراءات الكثيرة ما نراه في ترتيب القوافي بين الابيات من مزاوجة ، وما في جمل الابيات المقابلة للتفعيلات من تفكك ومن الدوران حول موضوع واحد . وخير ما نلخص به رأينا في هذا الفن الزخرفي قول الرافعي :

« ولقد قرأنا ان شاعرا عمل قصيدة واشتغل باحصاء الوجوه التي تُنْظَر بها فبلغت في عينه مليونَ وجه . وذلك عالَم من الارقام في قفر من الكلام » .

« تاريخ آداب اللغة العربية ، الرافعي ج٣ ، ص ٢٩٠ »

وخمّس الشعراء بعض القصائد لسابقيهم أو معاصريهم . قال أحمد السابق (المتوفى سنة ١١٦١ هـ) مخمسا بيتي الشافعي :

تهاجمت الأهوال من كل جانبٍ علىّ ودهري خصّني بمصائب
وقومٍ رأوني ذا جفون سواكب يقولون إنّ الصبر أكرم صاحب

صدقتم ولكن قد تقضى به عمري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيا قومُ مَـن لي قد أضرّ بي العنَا ولم أدرِ يومـاً أيـةً ساعةُ الهنـا
هَبُوا انّ صبري صار طبعاً وديْدَنا اذا كنتُ ذا صبر ولـم أبلغْ المُنى
ومِتُّ أنـا من يجتنـي ثمـرَ الصبر

« سلك الدرر للمرادي ج١ ص ١٨١ ــ ١٨٣ »

ولم يكتف ابن النقيب بنظم الشعر التقليدي ، فنراه ينظم مسمّطا رباعيا مطلعه :

يـا مُؤْثـراً للهـو طِيبَ النّعمَهْ ورافعـاً فيـه سُـجوف الحِتـمَهْ
كمْ في تصاريفِ القَضا مِن حكمَهْ وليـس بعـد الأنبيـا مِـن عصمَهْ

« الديوان ص ٢٦٧ »

ونراه يعارض لِسانَ الدين بنَ الخطيب بموشحٍ مطلعُه :

يا ليـالي السـفح من عهد الصِّبـا يا سـقى مغنـاكِ صوبُ الدِّيَـمِ
كـم تسرّقـتُ بهـا بـين الرُّبـا خِلَسـا مـرّت كطيـف الحلُـم
في زمـانٍ لـذّ عيشـاً وصفـا نعِمـت آصـالُه والبُكَـرُ
قـد حلَلْنـا فيـه روضـاً أُنُفـا يسـتبينا طـيرُه المسـتحِرُ
بأهازيـجَ مِـن اللحـن هفـا عندهـا النـايُ وزاغَ الوَتَـرُ

« الديوان ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ »

وقد أورد المحبي هذه القطعة من الزجل لأحد معاصريه على وزان « يا غائبين عني ما ترجعـوا » :

من تعشقو بالهجر قلبي قـلا لمـا قـلا
وحين على جسر الغضـا لي سـلا عنـي سلا
وزاد عـلى قلبـي العنـا والبـلا
وأمسيت بلا جليس أنيس عاني وجودي عدمْ
سكرانْ فِراق هائمْ نديمي الندمْ
وقـد سقانـي البيْنْ بكاسـه جُرَعْ
دلّني كيف أصنعْ
والعـذولْ بـي شـنّعْ
وامتنـع عني الذي أهوى وظهري انقسمْ
حَظي مُسْوَدّ فاحِمْ ما رأيت لي راحِمْ أو لسُقْمي آسْ

أهيمْ في النّواحْ ومرّي في النواحْ في جحيم ما تخمّدْ وأمسى جفني الرمِدْ
مِن تجني قاسْ

« خلاصة الاثر لمحمد المحبي ج١ ، ص ١٠٨ ــ ١٠٩ »

وقد أكثر شعراء هذا العصر من نظم الرباعيات وممن أكثر منها البهاءُ العاملي (ت ١٠٣١ هـ) ومن رباعياته :

كم بتّ مــن المســاء الى الإشراقِ ... مــن فرقتــكمْ ومُطربي أشــواقي
والهمُّ منادمــي ونُثقلــي نَدَمــي ... والدمــعُ مُدامتي وجَفني الســاقي

« الريحانة ، الخفاجي ج١ ، ص ٢١٢ »

* * *

ومنهــا :

يا ريــحُ اذا أتيــت دار الاحبــابْ ... قبّلْ عنــي تُراب تلــك الأعتــابْ
إنْ هم سألوكَ عــن البَهائي فقُلْ ... قد ذاب من الشوق إليكمْ قد ذابْ

« المرجع نفسه ص ٢١٣ »

* * *

ومنهــا :

قم وامضِ الى الدير ببَخْتْ وسُعودْ ... لا يحسُنُ في المدرسة اليومَ قُعودْ
واشربْ قدَحا وقُلْ على صوتِ العُودْ ... العُمْرُ مضى وليس مِنْ بعدُ يعودْ

* * *

ومنها ما كتبه الى بعض إخوانه بالنجَف الأشرف :

يا ريــحُ اذا أتيتَ أرضَ النجَفِ ... فالثِــمْ عنــي ترابَهــا ثــم قِــفِ
واذكر خبري لــدى عُرَيْبٍ نزلــوا ... واديــه وقــصّ قصــتي وانصرِفِ

« خلاصة الاثر ج٣ ، ص ٤٤٠ ، وسلافة العصر ص ٢٨٩ »

ومنهــا :

يا قوم الى مكة هــذا انا ضيــفْ ... ذي زمزم ذي منى وهذاك الخَيْفْ
كم اعــرِكُ عيني لأســتيقنَ هــلْ ... في اليقظة مــا أراه أم هــذا طيْفْ

« خلاصة الاثر ج٣ ، ص ٤٤٠ وسلافة العصر ٢٨٩ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولابن النقيب رباعيتان وهذه إحداهما .

لله مِـن السـفحِ ظـلالُ الوقـفِ واتبَعْ أنَرا لمـادحٍ فيـه واقـفِ
أوقفت عـلى جدولها طرْفيَ مُـدْ أطلفـتُ بـه عَنـان داك الوقْفِ

« الديوان ص ٢١٧ »

وجاء في ديوان ابن النقيب هذه الموالـيا :

لو رحتُ أبكي بكـتْ لأجلي القـلوبْ القِسي
أو بِتّ أشكي للانـتْ لِي الصخـورْ العِسِي

أبِيت والوجـدُ في قلبـي حِبالُـهْ رُسِـي
أنـدبْ مُصـابي وأحبابـي عهـودي نِسِـي

« الديوان ص ٣٠٩ »

وتتصور ان ابن النقيب نظم في هذه الفنون ليجاري شعراء عصره ويبين قدرته على النظم فيها ، هذا بالاضافة الى أن بعضها ، كالموشح والمواليا ، له اتصال وثيق بالغناء الذي كان يحبّه .

وكان على كل حال مقلاّ فيها وأكثر عنابة بالشعر التقليدي .

من الفنون الطفيلية على الشعر :

أ ـ التشجير :

التشجير في اللغة يقصد به تفريع كلمة من معنى كلمة أخرى في استطراد وتسلسل ، وهكذا ...

والتشجير في الشعر أن ينظم بيت يكون للقصيدة كجذع الشجرة ، ثم يفرع على كل كلمة منه تتمة له من قافيته نفسها ، وهكذا ، من جهتيه اليمنى واليسرى ، حتى يخرج منه مثل فروع الشجرة ويشترط فيها أن تكون من البحر نفسه .

ولم يعرف تشجير الشعر الا في القرن الحادي عشر الهجري . ويسمى هذا النمط من الشعر المشجّر .

وقد سبق العرب الى معرفة التشجير في النسـب منذ القرن الرابع الهجري .

فاستعملوا ما يسمى شجرة النسب لبيان تسلسله وتفرّعه (الرافعي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٣ ، ص ٤٤٥) .

وهذا مثال من المشجّر للشيخ محمد فهمي (١٣٣٠ هـ) : « عن مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : د. بكري شيخ أمين ، ص ١٨٧ » .

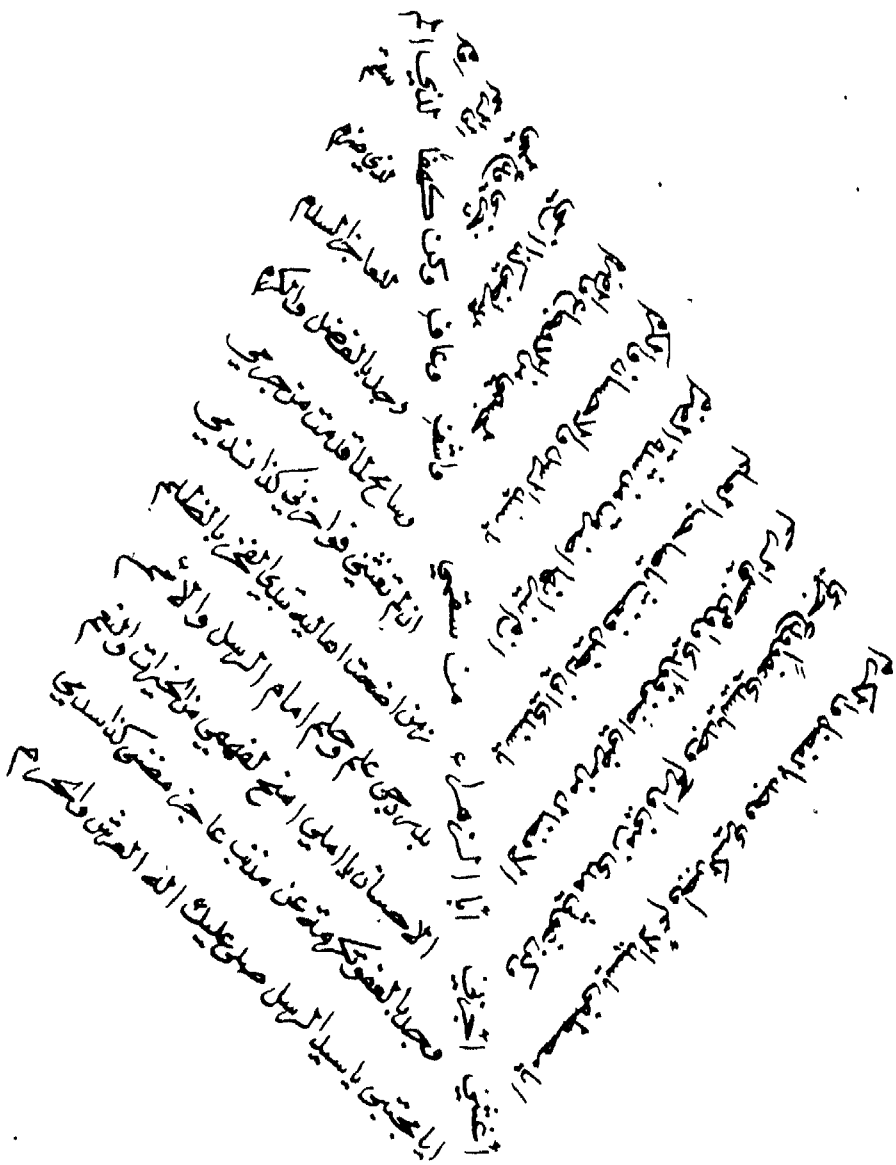

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلاحظ أن التشجير لم يعرف قبل العهد العثماني ولعلّه اخترع للنقش على النحاس ونحوه في هذا العهد ابتكارا في البيئة العربيه بقياسه على شجرة النسب ، أو نقلا عن الترك أو الامم الاخرى .

ب ـ ومنها التطريز :

وهو ان يشكل الشاعر من الحروف الاولى في الابيات اسم علَم لحبيب أو ممدوح ، كقول الامير نظام الدين أحمد بن محمد بن معصوم الحسيني ، وهو من رجال القرن الثاني عشر الهجري مطرزا باسم « خديجة » :

خلت خال الخد في وجنته ... نقطة العنبر في جمر الغضى
دامت الأفراح لي مذ أبصرت ... مقلتي صبح محيّا قد أضا
يتمنى القلب منه لفتة ... وبهذا الحظ للعين رضا
جاهلٌ رام سلوّاً عنه إذْ ... حظر الوصل وأوْلاني القضى
هامت العين به لمّا رأت ... حسن وجه حين كنا بالأضا

« المصدر السابق ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ »

وقد كثر فن التطريز في العهد العثماني . ولعلّه من أثر الترك في الأدب العربي .

ج ـ التاريخ الشعري :

أول من أدرج تاريخ الجمل بين أنواع البديع الشيخ عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٧ هـ) في بديعيته « نفحات الازهار ، ص ٤٩٥ » . وقد أكثر منه أهل القرن الثاني عشر الهجري وافتنّوا فيه وكان المسلمون يؤرخون بالهجرة والمسيحيون بالميلاد . وقد رأينا قبلُ أنّه عرف واستعمل في العهد الفاطمي ـ الزنكي .

ومن أمثله افتنانهم فيه أن أحدهم أرّخ لعرس في حلب فجعل الحروف المهملة في البيت الاخير تؤرخ للعرس وكذلك الحروف المعجمة فيه بالإضافة الى ذكر تاريخ العرس صراحة :

خذ تواريخا ثلاثا جمعت ... لك في مفرد بيت منبئه
بصريح وحروف أعجمت ... وحروف أهملت مختبئه

عـمّ حول وسرورُ العرْسِ وهو ثلاثـون وألـف ومئه

« المرجع السابق ص ١٧٦ »

ومن أمثلة الافتنان أن أحدهم أرّخ لبناء مناره جامع البهرمه بحلب في كل شطر من شطور خمسة أبيات ، وكان تاريخ بنائها سنه ١١١١ هـ وهاك بيتا منها على سبيل المثال :

بشراه أجرى بالسرور بناءهـا والخـير أمنـح بالهناء بنادي

« المرجع السابق ص ١٧٦ »

وبالغ بعضهم في تكلف الافتنان كشهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمد باكثير المكي الذي نظم قصيدة من خمسة وعسرين بيتا على البحر الطويل في مدح الشريف علي بن بركات بن أبي نُمَي اذا جمعت الحروف الاولى من التفاعيل الاولى في كل أبياتها تكوّن بيتاً من بحر الهزج يؤرخ سنة نظمها ، وهكذا تكون الحال اذا أخذت الحروف الاولى من التفاعيل الثانية والثالثة حتى الثامنة . وهكذا يتولد ثمانية أبيات على بحر الهزج تؤرخ سنة نظمها ، فاذا أخذت الكلمة الاولى من البيت الاول من هذه الثمانيه والحروف الاولى من الشطور الاولى في السبعه الباقية ، وصنعت الامر نفسه في الشطور الثانية تكون شطران يؤرخان سنه نظمها أيضـا .

وقيل إنّ الشاعر ابتلي بعد نظم هذه القصيدة من كثرة التفكير بعلّة لزمه أربعة أشهر . ولا شك في أن عمله هذا لا بتّ للشعر أو للفن أو للذوق بأيّ صلة ، وانما هو من قبيل اللعب واللهو وتحطيم الرأس فيما لا غناء فيه ولا جمال .

وبديهي أن كل ما نظم أو ينظم في التاريخ الجُمّلي ليس له أيّ طابع فني جمالي ، وهو يدلّنا على نمط من ذوق العصر المتكلف . وقد أحببنا ان نورد لك هذه القصيدة وما يتولد عنها من أبيات ليتجلى لك كيف ينحول الفن أحيانا الى صناعة ممجوجة تحطم الرأس ولا تثير عاطفة أو أي حِسٍ بديعي .

وهذه هي :

عـليّ ان بـت أجنـي نـور قربـهم
روحـي لمـن كـان للآمـال ملزمـي

لا يحسب الجاهل الصب الذي درست
حياته مل طولا من نفوذهم

يستعذب الداء ان وفّوا برؤيتهم
يا حبذا يوم رؤيا ملتقى أدمي

أحلى لديّ من الحلوى ولوعهم
بمرّ ما ألفوه طول صرمهم

لو أن من هجرهم أمسى لَقىً أيِست
أُساته لم أبُح يوما بشأنهم

حتى ولو سار سهم من نبال نوىً
لِمقلتي كان يحلو منه سفك دمي

منّوا على مغرم حان التلاف له
سؤاله رحمة بالوصل عن أَمَم

دع عنك يا أيها الساعي اتباع هوى
وكُفَّ عن فرط صدٍّ زاد في تُهَمي

فلو يلوح لذي نهي جمالُهمُ
حمِدتُ غيّي بمن أهدى الضنا وحمي

يطيب موتيَ إنْ أسعدْ بطيفِهمُ
فبعدَه أبداً لم أشكُ من ألم

ومخلصي واعتمادي مدح من صدقت
له المخايل في عزم وفي همم

صعب العزائم لا يرتاح من فزَع
ممنع الجار من يلحظه لم يضم

فتلك مشفقة بالعزم صيّرها
كثيرة الأمن أعفاها من النقم

عـزيـز حـيّ غطـاريـف ذوي هـمـم
روى عُلاهـم عـليٌّ المجـد في الأمـم

لعزّهـم أذعنـت أهـل الفخـام فمـا
يـرى عزيـزٌ تسـامى نحـو مجـدهم

يـودّ كـلٌّ مُبـاه لـو يكـون لـه
من فخرهـم بعـض ما سـادوا بهديـهم

مـن ذا يقاومهـم أو مـن يسـاهمهم
زادوا بفخـر عـليٍّ فـي علـوّهـم

سـما وخُـص بفضـل ، مـن يطـاوله
الى مَراقيـه يهـوي بل وعنـه حُمـي

عـليّ وصـف وفعـل في الطعـان اذا
ترى العـدا اطّرحوا هبـرا عـلى وضـم

درايـة مـن أبيـه المرتضـى ورنـت
بـدت لنـا منـه في وقـع القنـا بهـم

أمـتّ يـا أيهـا الليـث الهمـام ومـن
أحييـت دا أمـل ميْـتٍ وذا أطَـم

لقـد غـدا يتعـالى المجـد حـين روى
لعـزّ عليـاك منسـوبا بكـل فـم

صاهـرن يا كامـل العليـا ومسـعدها
لتهنكـم قـد حـويتـم صفـو كنزهـم

نظمـت وصفـك درّا ضمـن بهنئـة
طـراز عطف لـذا أرّخْ بـه حِكَمـي

فمـن عليّ بـدا فيـك الهـدى فزهـا
فسـد أبيّـاً وبالفـوز اللطيـف دُمِ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه هي الأبيات الثمانية التي تستخرج من الحروف الاول في تفعيلات القصيدة :

عـلي الحمـد في الوصفِ عـلي مسـعد الصنـفِ
بجديـه سـما حتـى حوى في الوصف ما يكفـي
نصوحـا محسِـنا يجـدي بَـراه اللـه للعُـرْف
بديـع الفعـل في وصفيـه من هَـون ومِن عُنـف
رحيـبُ السـوح في سـلم كـريـم زان باللطـف
كمّـي الكـرّ في الهيجـا هزبـر قـط مـا يُقْفـي
إليـه يلبـد الداعـي فيسـمي وهـو مسـتكفي
تـرى مـن كـان والاه ينـادي وهـو بالزحـف

وهذا هو البيت الذي يستخرج من أبيات الهزج الثمانية ويؤرخ سنة نظم القصيدة :

عـلي بـن بركـات عـلي حبـه كهفـي

« المرجع السابق ص ١٧٦ ــ ١٧٩ »

وأول من أدخل التاريخ الشعري بين فنون البديع الشيخ عبد الغني النابلسي يقول مؤرخاً وفاة الياس الكردي العالم الشافعي العابد الصوفي المتوفى سنة ١١٣٨ هـ :

قد كـان في بلدتنـا كامـل وهو الإمـام المفرد الواحـد
شيخ العلوم الياس نجم الهدى ومن هو الموجود والواجـد
من بعـده مات التقى أرّخوا ومات الياس التقـي الزاهد

« سلك الدرر ج١ ، ص ٢٧٢ ــ ٢٧٤ »

وقد نظم عبد الرحمن البهلول قصيدة في مدح الشيخ عبد الغني النابلسي استاذه ، فيها مقدمة غزلية تتألف من ثمانية وأربعين بيتا ومدح يتألف من واحد واربعين بيتا ويتألف من مجموع الحروف الاولى في العزل بيت من الشعر ومن مجموع أوائل أبيات المدح بيت آخر وفي كل بيت منهما أربعةُ تواريخ ويذكر فيها اسم الشيخ ، والبيتان هما :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهديك مدحا بلبغا يا سنيّ غدا
بحر الفتوحات باهي الفضل والمنن
ألفاظه كنجوم فهي تشرق ما
بدا سنا بدرها أرّخه عبد غني

« سلك الدرر للمرادي ص ٣١٠ ـ ٣١٨ »

ولعبد الله الشبراوي (١١٧٢ هـ) هذه الابيات يرثي بها أحمد الدلنجاوي ويؤرخ وفاته :

سألت الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدلنجاوي لحدّه
فصاح وخرّ مغشيّاً عليه وأصبح ساكنا في القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصِرْ فقد أرّختُ مات الشعرُ بعده

٤٤١ ، ٦٠١ ، ٨١

(١١٢٣) المجموع

« المفصل ج٢ ، ص ٢٨٢ »

يرثي الشبراوي في هذه الابيات صديقا له شاعرا ، ويجعل الشعر يموت بموته ويدفن معه ليدلّنا على فضله في الشعر . وقد استعمل تاريخ الجمّل الذي كان شائعا في ذلك الوقت ليؤرخ سنة وفاته ووُفّق الى أن يجعل الجملة التي يؤرخ بها مناسبة لمعاني جمله السابقة .

النثر خلال العهد العثماني

تمهيد :

نجد في هذا العهد أنواع النثر الثلاثة التي عرفت في العهود السابقة وهي :

أ ـ النثر الديواني ب ـ النثر العلمي التأليفي ج ـ النثر الأدبي .

ويلاحظ أن الخطابة في هذا العهد وهي نوع من النثر الادبي اقتصرت على الخطب الدينية أيام الجمع والاعياد وكانت تقليدية بعيدة عن الابتكار تجترّ خطب الأقدمين كخطب ابن نباتة السعدي وغيره ممن ألّفوا كتبا في الخطب الدينية ويتلوها الخطيب من ورقة أو كتاب أو يحفظها فيسردها عن ظهر قلب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قيل بأن اللغة التركية كانت وحدها لغة الدواوين الرسمية . ويضعّف من هذا القول أو يخرج عليه أننا وجدنا نثرا ديوانيا بالعربية متبادلا بين سلطان تركي وأمير عربي والسلطان التركي هو الذي كان البادىء بالكتابة في العربية ، وذلك خلال هجوم نابليون على مصر . ونعلّل هذا الذي وجدناه بما يلي :

١ ــ أنّ الكتابة الى الامراء العرب كان يجب أن تكون بالعربية التي يحسنونها .

٢ ــ ان العربيه بقيت لغة الثقافة الاولى في العهد العثماني لانها لغة القرآن والعلوم الدينية ، وكان على العلماء والادباء الاتراك وغيرهم من الاعاجم المسلمين أن يتعلموها ليتفقهوا في دينهم . وكان الى جانبها في هذا المبدان التركية والفارسية . ولقيمة اللغة العربية الدينية كانت المدارس التركية التي أنشأها سليمان القانوني في الاناضول والقسم الاوروبي من البلاد العثمانية تعلّم العربية ، وكان على رجال العلم والادارة والسياسة أن يتعلموها الى جانب التركية والفارسية ، فعرف عن غازي باشا بن شاهوار الجركسي أنه كان عارفا باللغات الثلاث « خلاصة الاثر ٣ : ٣٤٤ »[1] وكان بعض الأدباء العرب يتعلمونها ثلاثتها .

ذكر المحبي في ترجمة ابن الصائغ (محمد بن ابراهيم الحنفي المصري) انه كان يعرف اللغة الفارسية والتركية حق المعرفة بحيث انه اذا تكلم بهما يظن من سمعهما ، (خلاصة الاثر ، ج٣ ، ص ٣١٧) . وهذا يدل على أن هاتين اللغتين قد أخذتا تزاحمان اللغة العربية خلال العهد العثماني في المجالين الديواني والأدبي .

٣ ــ أنّ التركية كانت لغة السلطان ومن حوله في القصر من رجال الدولة . وهي لغتهم فكانت أسهل عليهم ، ولكنهم لم يكونوا يجهلون العربية وقد كان بعضهم ينظم بها أو يستشهد بما يحفظه من شعرها .

---

(١) ظهر كتاب أعاجم أتقنوا العربيه منهم قاضي العساكر « طاشكبري زاده » الذي يقول فيه المحبي : « لم ير نظيره في طلاقة العبارة والتضلع من العربية » ويقول فيه النجم الغزي : « لم ار روميّاً افصح منه باللسان العربي » (خلاصة الأثر ج٣ : ٣٥٦) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أوردنا قبل ونحن نتحدث عن حالة الشعر في العهد المملوكي الثاني بعض ما روي عن السلطان سليم فاتح مصر والشام ونضيف هنا أن السلطان أحمد بن محمد بن مراد (ت ١٠٢٦ هـ) كان شاعرا بالتركية مَخْلَصه ، على قاعدة شعراء الروم ، بختي ، وهو ضرب من النظم معروف في الشعر التركي وكان ميالا الى الادب والمحاضرات وقد رويت له الابيات التالية في الشعر العربي :

ظبي يصـــول ولا اتصال إليـــهِ ... جرح الفـؤاد بصارميْ لحظيْهِ
ما قام معتـــدلا وهـــزّ قوامـــه ... الا تهتكـــت الســـتور عليـــه
يسقي المُدامة من ســـلافة رِيقه ... ويخصّنا بالغنـــج مـــن جفنيـــه
عيناه نرجسُـــنا وآسُ عِذاره ... ريحانُنـــا والوردُ مـــن خديـــه
يا شَعْرُ في بصري ولا في خدّه ... إنـــي أغار مـــن النسيم عليـــه
(عجبي لسلطان يعـــزّ بعدلـــه ... ويجور سلطان الغـــرام عليـــه)
(لولا أخـــاف الله ثـــم جحيمه ... لعبدتـــه وسجدت بين يديـــه)

والبيتان الأخيران مضمّنان من شعر ابن رزّيك أحد وزراء الدولة الفاطمية المعاصر لنور الدين زنكي « خلاصة الأثر ٤ : ٣٠١ و ج١ : ٢٨٤ ــ ٢٨٥ » .

٤ ــ ان الناس ذوي الحاجات كانوا يكتبون شكاواهم وعرائضهم المرسلة من البلاد العربية الى القسطنطينية بالعربية حتى في زمن الاتحاديين المتعصبين للتركية المبغضين للعرب . وقد قرأ لي أحد مشايخ دمشق وهو الشيخ سعيد القواف المتوفى منذ بضع سنوات نصّ كتاب كان قد أرسله الى الباب العالي خلال الحرب العالمية الاولى يطلب فيه اعفاءه من الجندية ومعاملته معاملة غيره من علماء الدين وهو يستهلّه ببعض الشعر العربي . وأخبرني بانه قد استجيب لطلبه حينئذ .

٥ ــ أنّ الجهل قد ساد حين انحلال الحكم العثماني ، قبل الاتحاديين ، بين الاتراك والعرب على السواء ، ولكن الامر قد اختلف زمن الاتحاديين بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر ، فقد أراد هؤلاء تتريك العرب وغيرهم من الاجناس الداخلة تحت الحكم العثماني فتصدت لهم الجمعيات السياسية العربية مطالبة بالاصلاح وجعل اللغة العربية لغة رسمية في البلاد ، محافظة على القومية العربية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ـ أنّ أصالة اللغة العربية قد طوّعت التركية فأدخلت فيها كثيرا من مفاهيمها وقد دعمها في ذلك التأثير الديني والتقدّم الحضاري ، على حين لا نجد في العربية إلا النزر اليسير من التركية .

ونرى أنّ النثر الصادر عن السلطان سليم الثالث العثماني (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ م) في مستوى النثر الذي كتب به شريف مكة الى إمام اليمن بمناسبة غزو نابليون لمصر . وقد رأينا في كتب التراجم التي ألفت في هذا العهد مثل « الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة » للغزي ، و « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمُحِبّي ، و « سلك الدرر في رجال القرن الثاني عشر » للمرادي ، و « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » للشوكاني ، و « ملحق البدر الطالع » لمحمد بن زبارة الحسني اليمني الصنعاني كثيرا من العلماء الادباء الموالي ينظمون الشعر ويكتبون النثر في المستوى الذي كان يكتب به العرب أمثالهم أو في مستوى يقاربه ، باستثناء قلة من الادباء العرب اللامعين كالخفاجي وابن النقيب الدمشقي ومنجك الذين كانوا محلّقين بالاضافة الى أدباء عصرهم .

وقد وجدنا أن بعض النثر الذي أوردناه ، الديواني منه والعلمي والادبي ، لم يكن دون مستوى النثر في العهد المملوكي من حيث الأسلوب التعبيري إلا أنّ بعضه الاخر كان فيه تعابير عامية أو ركيكة أو أخطاء نحوية أساءت اليه .

ووجدنا من حيث المضمون أنّ الافكار الدينية ، والصوفية منها بخاصة ، هي الغالبة على هذا النثر بالإضافة الى أن الروح الديني المسلم ظاهر ضد الغزاة الفرنسيين في الكتابة الديوانية .

ورأينا التعصب المذهبي ضد المذهب الشيعي ظاهرا في نص تاريخي ، لم نورده في هذا الموجز ، من كتاب « الخسيس في أحوال انفس نفيس » ، وهو في موضوع تدمير هولاكو لبغداد والحديث خلال ذلك عن ابن العلقمي الشيعي ، وهو يعكس روح العداء التي كانت سائدة حينئذ من جرّاء الحروب بين الدولة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العثمانية السنية والدولة الصفوية الفارسية التشيعه التي أساسها في رأينا سياسي وليس مذهبيا .

وكان الجمع والاخذ عن الاقدمين هو الغالب على التأليف الذي كان تسوده غالبا روح المحافظه على الاخلاق والدين وعادات السلف . ومثاله النص الذي سنورده وندرسه للشيخ علوان في الأعراس . ويظهر في بعض النصوص روح العنايه بأصول الحضارة والاداب العامة كالنصوص في كتابي آداب المؤاكلة وآداب العشره للغزي . وهي تدل على روح حضاري أصيل وذوق مصفّى أدى اليهما تسامي الروح العربي وتهذيب النفوس والطباع خلال عصور طويلة . ولم نورد نبذا منها هنا رغبة في الاختصار .

ويظهر في بعض النصوص روح النقد للاحوال السيئة والحكام المسيئين ، كما سنرى في مقامة الخفاجي التي يذم بها قاضي القسطنطينية وابنه .

وتظهر في بعض النصوص القدرة على وصف الاحوال المعنوية كما سنرى في نص الطالوي في الشوق وفي رسالة البوربني التي أجاب بها على عتاب صديق .

ومن حيث الاسلوب نلاحظ انه كان يغلب على النصوص العلمية التحرر من القيود والصناعة بما فيها السجع ، والانصراف الى أداء المعاني بحرية ، وسهولة الالفاظ والأداء مع مراعاة الصحة ، ونستثني من ذلك النص التاريخي من كتاب « الخميس ... » ففيه سجع وبعض صناعة ، ولم نورده ، ونص الشيخ علوان المورد فقد مالت به سهولة الأداء الى مقاربة العامية ، ونلاحظ أنّ النصوص الادبية كانت تغلب عليها الصناعة ، ولكنّ كتّابها كانوا متمكنين من صناعتهم قادرين على أداء أفكارهم بقوة ووضوح ، وكان الخفاجي ، أحدهم ، في مستوى كتّاب العهد المملوكي الاول .

ويغلب على النصوص التي سنوردها كلها : علميه وأدبية وديوانية ، محاكاة الاقدمين والاخذ عنهم في المعاني والصور وطرق الأداء ، وقلةُ الابتكار ، أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

'بعدامه . مع القدره على التوفيق بين التقليد والاخذ من القديم وبين مراعاة المقتضيات والمناسبات والاحوال التي يعيشون فيها[1] .

وقد يكون التزام التقليد ناجما عن عدم تبدل الاحوال عن ذي قبل . وعدم حدوث تورات سياسية اجتماعيه تقلب الاوضاع والمفاهيم . فبقيت أنماط التفكير والاداء كما هي دون تعبير . لان النفوس نفسها لم تتغير . مع تفاوت ، في مستويات الكتّاب فيما بينهم بطبيعه الامر . وسنحاول ان نستبين مميزات أنواع الكتابة وسماتها في هذا العهد من النصوص التالية :

أ ــ الكتابة الديوانية

١ ــ كتاب السلطان ملك الروم أبي السلطان العثماني ... الى شريف مكة غالب بن مساعد ، بمناسبة هجوم نابليون على مصر :

« وبعد فهذا مرسومنا المبجل الشريف ، وخطابنا المعظم المنيف لا زال نافذا بعون الله في سائر الارجاء والاقطار ، ما دام الفلك الدوار ، أصدرناه مبنيا على نظيم فرائد التحية والتسليم ، ومنصوبا على قلائد التبجيل والتكريم ، محتويا على قواعد صيانة الدين ، مؤكدا لمعاقد حماية سنن سيد المرسلين ، صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين .

« أصدرنا الى عالي جناب الامير الامجد ، المبجل الأجلّ الاوحد ، المقتفي آثار أسلافه الاشراف ، من آبائه الغرّ صناديد آل عبد مناف ، وأجداده السعيدي

---

(١) وقد ظهر في هذه العهود بعض أعلام المفكرين والادباء مثل : عبد القادر البغدادي (١٠٣٠ ــ ١٠٩٣) « راجع خلاصة الاثر ٢ : ٤٥٢ » والشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) « خلاصة الاثر ١ : ٣٣١ ــ ٣٤٣ » والمقري التلمساني صاحب « نفح الطيب » (١٠٤١ هـ) « المختصر للمحبي ١ : ٣٠٥ » والبهاء العاملي (٩٥٣ هـ ــ ١٠٣١ هـ) « خلاصة الاثر ٣ : ٤٤٠ ــ ٤٥٤ » ونجم الدين العزي (٩٧٧ ــ ١٠٦١ هـ) « خلاصة الاثر ح٣ : ١٩٥ ــ ١٩٧ » ونور الدين الحلبي صاحب السيرة الحلبية (٩٧٥ ــ ١٠٤٤ هـ) « خلاصة الاثر ٣ : ١٢٢ ــ ١٢٤ » وابن سنان القرماني (٩٣٨ ــ ١٠١٩ هـ) « خلاصة الاثر ١ : ٢٠٩ ــ ٢١٠ » وابن أبي الرجال اليمني صاحب « مطلع البدور » (ت ١٠٩٢) « خلاصة الاثر ١ : ٢٢٠ » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السير الجميلي الاوصاف . فرع السجره الزكية النبوية ، طراز العصابة العلويه المصطفوية فرّد عين الزهراء البتول المحفوف بصنوف عواطف الملك الماجد ، حالا سريف مكه المسرفه التريف غالب بن مساعد[1] ، لا زالت العنايه الربانية له ملاحظه ، والكلاية[2] الصمدانيه عليه حافظه ، والى قدوه العلماء وعمده الفضلاء نائب مكه المسرفة وكافة السادات الأشراف الأجلاء المامين ومعاني المذاهب الاربعه والعلماء والأئمه المحترمين ووجوه كافة المسلمين ، من ساكني بلد الله الامين ، من حاضر وباد ، وفّقهم الله الى سبيل الرشاد . يحبطون علما أنّ طائفة كفار الفرانسه . جعل الله ديارهم دارسه ، وأعلامهم ناكسة ، ، قد نقضوا العهود ، وخانوا موانيق المعبود . وخرجوا من أطوار الحدود . وهجموا على بدوان مصر وسكانها ، على حين غفلة من أهلها . فملكوا البلاد ، وأفنوا الكفر والفساد ، وخاضوا بحر الضلال والطغيان . وتحشدوا تحت رايه الشيطان . وتمكّن البغي في أحشائهم . وإنّ الشياطين لوحون الى أوليائهم ، لا حاكمَ يردعهم ولا دينَ واعتقادَ يجمعهم ، يعدون النهب عنسه . والنسيسه أكسل شسة ، قد انفقت آراؤهم ، وارتبطت أشوارهم[3] . على الهجوم على سائر بلدان المسلمين وأقطار عباد الله الموحدين بأن أهل الاسلام قوبين[4] ، ولهم مزيد الصلابه في الدين ، فاذا وصلنا أقطارهم . وحللنا ديارهم ، فالضعيف منهم نباشره بالحرب والضرب والقتل والنهب ، والقوي منهم ننصب له سرائك المكر والحيل حتى تطمئن خواطرهم وتأمنَ ضمائرهم الى أن يقعوا في أشراكنا ونعمل فيهم ما شئنا من مقاصدنا ونلقي بين سائر المسلمين المكايد الخفية بالفساد ، لايقاع العداوة المباينة للاتحاد ، في أحوالهم وأديانهم . ولم يعلموا لعنهم الله ان الاسلام معروس في قلوبنا ، والإيمان ممزوج بلحمنا ودمنا ، أكفر" بعد ايمان ، أضلال" بعد هدى .

---

(١) غالب بن مساعد كان معاصرا للشوكاني . وكان حيا سنة ١٢٢٩ هـ له معارك كثيرة مع السعوديين في نجد بقيادة عبد العزيز بن سعود .

(٢) الكلاءة : خففت فيها الهمزه .

(٣) الشور في مصطلحات العامة المتسوره وجمعه اشوار .

(٤) خطأ نحوى وصوابه قويّون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلا ورب الارض والسماء . ربّنا لا تُزغْ قلوبنا بعد اذ هديتنا . وخصوصا في طوائف العرب . لنبلغ فيهم أقصى مرام وأعز مطلب . وبذل الجهد في تحريج الرعايا من الاسلام عن طاعة من ولّي عليهم من الحكام حتى يكون لنا الصولة العظمى ويصيرون الجميع[1] لنا مغنما ، فبنقطع بذلك سلك نظامهم . ويفصم عقد انتظامهم ، فتملك حينئذ رقابهم وأموالهم فإنّ العرب أسرع ما يستولى على ديارهم ، لتفرقهم في أوديتهم من أقطارهم . وعطلنهم عن حزم أحوالهم فان أعظم ما يُشتّت جموع الاسلام . ويفلّ حد سنانهم عن الانتظام . هدم قبلتهم . وحرق مساجدهم . فادا ظفرنا بأقطارهم . وهدمت كعبتهم . ومسجد نبيهم ، وبيت مقدس عزّهم . انقطع أملهم وشرق نسلهم . وملكنا ديارهم ، فإنّ الامور لا يدركها الا انفاق الجمهور فنقتل جمع رجالهم ، ومن يعقل من صبيانهم فحينئذ نقتسم ديارهم ، وأموالهم ، وأملاكهم . ونحوّل بقية الناس الى أصولنا وقواعدنا . ولساننا ودينا . فيه يُمحَى الأسلام وقواعده وشرائعه ويندرس رسومه وآثاره من وجه الارض من شرقها وغربها وجنوبها وشمالها ، وعربها ، وعجمها .

فهذا ما اتفق رأي الفرنسيس اللعين من سوء المقاصد في المسلمين . جعل الله دائرة السوء عليهم فلا يستطيعون صرفا ولا نصرا ، ونرجو الله أن يعاملهم بعدله في قوله ، (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله) . فهذا حال الفرانسة ، في إلحادهم وجدالهم ، وعنادهم ، وما اقتضاه فاسد اجتهادهم ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ، فكيف لا يكون فرضا (على كل أحد من مسلم موحد)[2] ، أن يشمر عن ساعد الجد ، ويبذل نفسه وماله في مرضاة الواحد الفرد ، ويتمثل قول أصدق القائلين : سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أُعِدّت للمتقين ، ويكون رابحا في بيعه عن الخسران ، مستبشرا ببذل نفسه في سبيل الرحمن . لقوله « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن » . الى غير ذلك من الآيات

---

(١) لغة أكلوه البراغيث والصواب حذف الواو والنون من يصيرون .
(٢) تعبير ضعيف الاحسن منه : على كل مسلم موحد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البيّنات والاحاديث الصحيحة المروية عن النبي ، مما يحثّ على نصرة الدين ، ويلزم سعي الموحّدين ، فالآن يا سرية مكة ، ويا سادات الاشراف وقادات العرب ، وحماة الدين وكماة المسلمين وغزاة الموحدين وأبطال الحروب ، الماحين بصوارم عزمهم عن الدين ظلام الكروب ، يا رجال العارات ، ويا أركان الشريعة والعبادات ، ويا حفظة الدين والأمانات ، ويا باذلين النفوس عند انتهاك الحرمات ، ويا كافة اخواننا في الدين ، والذين هم لتربة ربهم ناصرين ، البدار البدار ، الى طاعة الملك الغفار لمحافظة قبلتكم ، ومَحْتِد نبيّكم ، منشأ الاسلام ، ومسجد نبيّكم عليه السلام ، ومواطن مصاعفة عبادتكم من ساحة بيت الله الحرام ، فالغيرةَ الغيرةَ والحمية الحمية ، من دولة أعداء الدين ، الذين هم عن كل ملّة مارقين ولكتب رسل الله مكذبين ، فتشدّوا عزائمكم للقائهم ، واحفظوا جهاتِكم وسواحلَكم ، ومنافذ بلدانكم ، وسارعوا الى الرباط ، الى حدود الكفره اللئام ، ببندر جدة وينبع وما والاهما ، مما فيه صيانة المسلمين وحفظ أعراض الموحدين ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وفي سبيل الله أنفقوا وتحملوا ، وكونوا كلمتكم واحدة ، وأيديكم متناصرة ، ولتكن سيوفكم بارقة ، وسهامكم راشقة ، وأسنّتكم في الطعن متلاحقة ، ومدافعكم صاعقة ، ونبالكم الى أفئدتهم متسابقة ، ولتتفصدوا بذلك اعلاء كلمه الدين ، والذبّ عن بيت الله ومسجد رسول الله ، ونرجو الله أنكم مؤيدون بنصر الله ، محفوظون بروحانية رسول الله ، ولا يكون لكم تخلف عن ذلك ، ولا تراخٍ في حفظ تلك المسالك ، ونحن في طرف السلطنة السنية ، ننتشر رايتنا العلية . فبحول الله وقوّته وباهر عظمته تسلكهم عساكرنا المنصورة ، وتقطعهم سيوفنا المشهورة . وقد سيّرنا عليهم شجعانا لا يبالون بالموت لإعلاء كلمة الدين ، وغُزاةً على النار محبةً في دين الله . فنتعقّب بقدرة الله أدبارهم ، لعل الله يرزقنا هلاكهم ودمارهم فنجعلهم إنْ شاء الله هباء منثورا ، كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . فبادروا أيها المسلمون الى الرباط بجُدّة وينبُع . ومن تخلف فقد عصى الله وخالف أمرنا ، فإنّ ذلك أمرنا اليكم وحتمنا عليكم . « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، واستجلبوا صالح الدعوات من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنجّازكم[1] وصالحيكم وأفاضلكم عند البيت الحرام . وقد قال تعالى « انفِروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » . وقال عليه السلام « المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا » . « وهذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » . « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين . وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تسودّ وجوه وتبيضّ وجوه فأمّا الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأمّا الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين . ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور . كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولّوكم الادبار ثم لا ينصرون ضربت عليهم الذلّة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . فالبِدارَ البدارَ الى ما كنا أمرناكم من الرباط ، والحذارَ من خلاف ذلك . هذا ما انتهى أمرنا اليكم لا زلتم موفّقين بعون الله المعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

« البدر الطالع للشويكاني ج٢ ، ص ٩ ــ ١٥ »

---

(١) جمع عاجز على عجّاز والمعروف المألوف جمع المذكر السالم منه والجمع عَجَزَة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة موجزة في هذه الرسالة :

يلاحظ في هذه العهود أن أهل اليمن والحجاز ونجد وسائر الجزيره العربيه كانوا يسمّون السلطان العساني « ملك الروم » لانه ملك البلاد التي كانت خاضعه لهم في الاناضول وجنوب شرق أوروبا .

وقد أرسل السلطان سليم الثالث العثماني (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧ م) هذا الكتاب الى الشريف غالب بن مساعد أمير مكة خلال هجوم نابليون على مصر . ولغة الكتاب هي العربية .

يبدأ السلطان في المقدمة بتعظيم نفسه (مرسومنا المبجل الشريف وخطابنا المعظم المنيف) ، ثم يعظم من شأن المرسَل اليه غالب بن مساعد ويشيد بنسبه الشريف . ثم يوجّه خطابه الى العلماء والشرفاء وسائر المسلمين بمكة المكرمة ، ثم يسدي إليهم خبر هجوم الفرنسيين على مصر ويدعو عليهم بالهلاك : (لا زالت ديارهم دارسة ، وأعلامهم ناكسة) ويهاجمهم في سلوكهم وكفرهم وخروجهم عن العهود والمواثيق وبصور نواياهم من الهجوم على الضعفاء ، ومحاولة التفرقة بين المسلمين ، وإثارة العرب بخاصّة على حكامهم الاتراك ، والاستفادة من الفرقة بين العرب واستقلال كل منهم بواديه ، واستهدافهم هدم القبله وحرق المساجد وتحويل المسلمين عن دينهم . ثم يستنجد بعرب الجزيرة العربية على تعدّد إماراتها داعيا الى المساعده والجهاد وحسن الاستعداد للدفاع عن الأماكن المقدسة والحفاظ على السواحل كبندر جدة وميناء ينبع وما والاهما ، ويتفاءل بالنصر ويوجّه اليهم الامر بالدفاع والجهاد محذّرا من عاقبة التخاذل ، ثم يستجلب صالح الدعوات من العجزة والصالحين ويستشهد بالآيات الداعية الى الجهاد والثبات والوحدة والاخوة ، والناهية عن التفرق والتقاعس ، ثم يلحّ على المسارعة الى الجهاد والمرابطة والحِذْار ، ويختم الكتاب بالدعاء لهم بالتوفيق ، وبالصلاة على النبي .

ومن خصائص هذا الكتاب اهتمام كاتبه بالدين وبيان ارتباط احكامه ومضموناته به وذكر قواعد صيانة الدين وتأكيد ضروره المحافظة على سُنَن سيّد المرسلين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونرى من حسب الأسلوب أنّ الكاتب يستعمل جملا معترضة دعائية كثيرة ويقتبس أحيانا هذه الجمل من القرآن : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » ويقتبس من القرآن معاني أخرى غير الدعاء ، ويأتي أحيانا بجمل جوابية يرد بها على نوابا الفرنجه وأعمالهم : « كلاّ ورب الارض والسماء » . وبرغم ان الوضوح يغلب على أكثر الكتاب فان بعض تعابيره لا يخلو من ركاكة : « فكيف لا يكون فرضا على كل أحد من مسلم موحد . » وهو يستعمل السجع من بداية الكتاب الى نهايته .

ونراه من حيث اللفظ يخفف الكلاءه الى الكلاية ويستعمل التسور وجمعه الأسوار بمعنى الرأي المشار به وهو مما تستعمله العامة وليس في اللغة الفصيحة . ونراه من حيث الصياغة يخطيء خطأ نحويا ، وذلك في قوله : « بأنّ أهل الاسلام فوبين » .

ب ــ النشر التأليفي

١ ــ اعراس الشام للشيخ علوان :

(عن مقال للاستاذ عبد الهادي هاشم في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٣٢ ـ ج٢ ، ص ٣٢٧ ــ أعراس الشام ، في أوائل القرن العاشر الهجري ــ من نصّ للشيخ علوان (٨٧٣ أو ٨٥٦ ــ ٩٣٦ هـ) .

تُرجم له في الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي ج٢ ، ص ٢٠٦ ــ ٢١٣ نشْر جبرائيل جبور ، وفي مقدمة كتابه الجوهر المحبوك في نظم السلوك الذي طبعه سنة ١٣٢٩ هـ أحد أحفاده المرحوم عبد القادر العلواني ... وهو علي بن عطية بن حسن بن محمد واشتهر بالشيخ علوان ، حمَوي المولد والنشأة والوفاة شافعي أشعري شاذلي . منصوف واعظ ، له في حماة البوم ضريح وجامع باسمه ونروى له كرامات . له شعر جيد ونثر بعضه مصنوع وبعضه مرسل ، وله من الكتب نحو عشرين طبع منها الجوهر المحبوك ... وبيان المعاني في شرح عقبدة الشيباني ، وأكثرها في التصوف والعقيدة والفقه الشافعي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أجلّ كتبه « نسمات الاسحار في كرامات الاولياء والاخبار » في التصوف والزهد والتأديب بأدب السلف وأسلوبه فيه أسلوب الواعظ المخلص الذي يسلك لبّ القارىء دون تكلف .

أخذ الاستاذ عبد الهادي هاشم هذا النص من كتاب نسمات الاسحار المذكور . وقد كتبه الشيخ علوان شاكيا من انتشار البدع في عصره . وأشار الاستاذ هاشم في الحاشيه الى محوى معظم الفقرات التي أغفلها لانها استطرادية لا علاقة لها بالأعراس ، وأهملناها نحن كذلك .

النص :

وأنواع البدع في هذا الزمان كثيرة جدا ... ومن أقبح البدع ما حدث في بلادنا في الاعراس ، وذلك أن الشيطان ، لعنه الله ، كما كان جالسا على الصراط المستقيم (يريد : جالسا للناس ليضلّهم) ، والنكاح منه ، فانه من سنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، أدخل على من أراده أمورا فظيعة وأحوالا شنيعة ، لا بأس بذكر بعضها ، تذكرة للعالم ، وتبصرة للجاهل ، فأولها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : عليك بذات الدين ، تَربتْ يداك ، وورد عنه : اياكم وخضراء الدمن . قيل : من هي ؟ قال : المرأة الحسناء (في منبت السوء) ، الحديث . فاذا أراد انسان نكاحا لا تراه يسأل لا عن دينها ، ولا عن نسبها ، وانما يسأل عن جمالها وجهازها ، وهل معها قماش كثير وجهاز ثقيل ، والحامل على هذا كله التساهل في الدين ، فاذا ذكرت له امرأة متجهزة كثيرة المال أرسل اليها ، وأقبل بكليته عليها ، والحال انها مغتابة نمامة كذابة تاركة للصلاة سيئة الخلق ، وهذا فعل من هو في غاية الحمق ، فإن نفَس الفاسق سم قاتل . ثم يرسل بعض الناس لحما وطعاما على رأس الحمال مكشوفا رياء وسمعة ، ليقال : هذا عشاء فلان ، ثم يوجه اليهم جماعة من الاغنياء ورؤوس الحارات الاغبياء ، ولا يلتفت الى الفقير والمسكين فإذا جرى العقد أبى أهلها أن يكتبوا عقد النكاح إلاّ على حرير ، نحو ذراع أو أكثر ، اسرافا وتبذيرا ... فاذا قرب الدخول ، وحان الوصول ، اجتمع أهل محلة الزوج غالبهم : صغيرهم وكبيرهم ، وصحبوا معهم البغال ، وأكثروا الصخب والجدال ، وتوجّهوا الى محلة الزوجة لنقل جهازها ، فبتلقاهم أهل تلك المحلّة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالمدافعه ، والمُشاقّة والممانعة . وطلبوا منهم رؤوسا عديدة من الغنم ، وقالوا : إن لم تأتوا بها لا تطلقون أخذ ما جئتم بصدده ، فيقولون لهم : اذا كان الامر كذلك ، فقوموا بواجب حقنا عليكم من المآكل الكثيرة ... فيذهب كل فاسق منهم الى بيته ويسهر زوجته ويأمرها بالقيام الى تحصيل الضيافة والطعام ، فربما تكون مشتغلة باصلاح بعض شأنها ، فيلعنها ويلعن آباءها واخوانها ، وفي الحقيقة ما لعن الا نفسه ...

وربما يكون الانسان منهم فقيرا لا يملك قوت ليله ، أو (ليس) عنده ما يكفي أولاده ، فيتركهم يتضاغون من الجوع ، ويحمل قوتهم في طاعة الشيطان رياء وسمعة ، نسأل الله العافية ، وربما يصنع بيضا أو لحما ، وأولاده الصغار يبكون على أمهم ، فلا يدفع اليهم ما يُهجِعهم ، ويقول : يبقى المَقلى ، يعني الإناء الذي يقلى فيه ، ناقصا ، هذا عيب وفضيحة . فلا فوه الا بالله من أخلاق أهل النفاق ، يراؤون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليلا . فاذا أكلوا السحت أخذوا في الافك واللعب ، والمداهنة والكذب . هذا وأهل الزوجة قد صفّوا الأثاث في الاطباق ونشروا المتاع على الدواب ورفعوا الحُليّ على رؤوس الحمالين ، وفرحوا بما يجب الحزن عليه ، وانتشر النساء والرجال ، مختلطين في الأزقّة والأسواق ، رافعين الاصوات بالزغاليط ، قاصدين المفاخرة والمكاثرة ... فاذا كان ليلة الدخول ، وقعوا في أمور ، منها الايلام[1] بالبدعة ، والرياء والسمعة ، وذلك أن بعضهم ربما يكون فقيرا ، فيستدين ويتكلف فوق طاقته ، قاصدا بذلك تكثير الطعام وتحسينه ، لئلا يعاب عليه بتقصيره عن القَدْر الذي أولم به جاره ... ثم يتسرع في دعوة الغنيّ والوجيه ، ويغفل عن الارملة والمسكين ، والفقير واليتيم ، أو يكلهم على لحس الأواني ولقط ما انتشر . وبعض الناس يدعو أكابر العلماء ، وأعيان الناس والامراء ، ويكلفهم ويحيّيهم ، فلا يطيقون التخلف عن الإجابة لوجوبها ، وقصده مفاخرة جيرانه ومباهاتهم ، فيقول : كان عندي الشيخ الفلاني والامير الفلاني والكبير الفلاني ، وهذا رياء مذموم .

---

(١) الإيلام من الوليمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعضهم قد اتخذ سنة فبحب . وفعله تسعة فيعرم جماعة مستكثرة . فاذا آكلوا حبسهم لغرامة اضعاف ثمن ما أكلوه . ويقول لبعض اصحابه : ناد بالنساباش[٢] فيقول هذا المنادي اذا أعطاه أحد شيئا : شاباش يا فلان . هذا وجماعة من النساء يستمعون صوت المنادي . فإذا سنّى الباذلُ النقوط رفعوا أصواتهم بالزغاليط . خصوصا اذا كان المنادَى باسمه من وجوه الناس ... فهنالك تقع المفاخرة والمغايرة بين الاقران ويسنحود عليهم الشيطان . ويحصل لهم العجب بفعلهم الخبيث ، فينفقون أموالهم رياء وسمعة في سبيل ابليس وجنوده . ومما ينادي المنادي : أخلف الله عليك يا فلان . وهو الترَفيّ ويكون قد بذل نصفاً ليغرّ غيره . وفي الحديث النهي عن هذا ... ليت شعري كيف يُخلِف الله على من بذل ماله على هذا الوجه ... فاذا انقضت الوليمة توجّهوا الى الحمّام . وقد صحبوا معهم شمعا مستكثرا ، فإذا خرجوا أوفدوه بين يدي العروس متشبهين بالمجوس ، من اظهار شعار النار ، على انه بكمبهم مصباحان أو ثلاثة ، ثم تهلّلوا تهليلا باللهو واللعب والغفلة وتسليط حروف الهيللة واخراجها عن محلها . كما يُفْعَل بين يدي بعض الفقهاء عند ختم مجالس البخاري ، كما شاهدته وفعلته . وأسأل الله التوبة والمغفره ، فإنّ مما أظهر فقهاء الزمان من البدع أنهم اذا ختم أحدهم مجلس قراءته أفرغت عليه خلعة ثمينه عارية . رهناً على ما تأخر له عند صاحب القراءة من الدراهم ، ورياء ومنافسة للمآتم ، هذا والنساء مختلطون بالرجال في مجلسه ... وبالجملة إيقاد الشمع اسراف ، لم يكن في عهده صلى الله عليه وسلم ، ولم يُنقَل عن أحد من أصحابه ، نم المصيبة العظمى والداهية الدهماء ، أنّ نساء المحلة وغيرها يجتمعن في دار . في النياب والزينه والخضاب بالحِنّاء والتحلّي بالذهب ، بين أيديهنّ السموع موقده . والوجوه بادية والزينة ظاهرة ، لا حِجابَ ولا جلباب ، فيدخل الزوج للجَلا ، بل للعمى والظلام ، فيتلقّيْنه بالشمع والزغلطه . وهن سافرات عن وجوههن ، مبديات لزيننهنّ ، فمضده امرأتان من أقاربه : واحدة عن يمينه وأخرى عن شماله ، فيدخل على

---

(٢) كلمه فارسية للتعجب أو الثناء مثل مرحى بالعربيه واهل دمشق يقولون البوم سوباش .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النساء الأجانب . وربما يدخل معه شبانا بالغين من الاقارب كأخيه البالغ ومن في معناه . فلا حول ولا قوة الا بالله . فهنالك يجلس على مكان رفيع ، فتتقدم كل امراة اليه ، وتلصق الدراهم بين عينيه ، ورائحة الطيب منها فائحة ، وعينها محدّقة إليه لامحة ، وزينتها بادية لائحة ، فان كان ممن يزعم أنه متديّن غضّ بصره ، وإلاّ فتح عينيه وارسل نظره ، الله عليكم ، هل يحِلّ هذا الفعل القبيح في دين الاسلام ؟! أو نُثقِل مثل هذا عن سيد الانام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؟ ثم تخرج العروس الملعونة ، هي وماشطتها الشريكة لها في اللعن على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنّه لعن النامصة والمتنمّصة ، والنامصة بالصاد المهملة هي التي تزيل الشعر من الوجه وهي المسمّاة بالماشطة ، والمتنمّصة هي التي تطلب فعل ذلك ، وهذا الفعل حرام ، إلا اذا نبتت لحية أو شوارب ، فلا نحرم ازالتها بل يستحب . والنهي إنما هو في الحواجب ، ومعلوم أنّ الماشطة تنتف حواجب العروس ، فتشتركان في اللعنة ، لارتكابهما ما نهي عنه . وأما تحبيرُ الوجه والخضابُ بالسواد وتطريف الأصابع فحرام على الخليّة ، وعلى غيرها بغير اذن الزوج ، كما نقله الدميري . وكذلك الوشم حرام فعله ، وملعون فاعله وطالبه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، وهو ان تغرز ابره أو مِسلّة أو نحوُهما في ظهر الكف أو المعصم أو الشفه أو غير ذلك ، حتى يسيل الدم ، ثم يحشى ذلك الموضع بالكحل ونحوه فيخضرّ ... وهي مسألة عامة الوقوع ، خصوصا في الفلاحين وأهل البوادي رجالهم ونسائهم . وبالجملة تخرج العروس في شيء يقال له الشربوش ، والذي يظهر لي ، والعلم عند الله تعالى ، أنه ومافي معناه مما ظهر في زماننا ، ويلبسه النساء على رؤوسهن ويسمونه المُقنْزَع ، مما أخبر صلى الله عليه وسلم بوقوعه ... رجعنا الى ما كنا بصدده . فاذا خرجت وامتثلت بين يدي الزوج ، قام لها ، وكشف شيئا يقال له الجِلايَة ، عن وجهها ، واخذت تتقصّف وتتكسّر في حركتها وتتفتّل ، وكلّما دارت مرّة لصق الزوج ومن معه ، كأخيه البالغ والمراهق ، اللذين يحرم عليهما النظر اليها في حال المِهْنة والرثاثة ، فضلا عن حال الزينة والنضارة ، الدراهمَ على جبهتها وعلى خدبها . ثم تذهب الماسطة بها الى بيت . وتخلع عنها تلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهيئة ، وتفرغ عليها ثيابا غير تلك الثياب . وتلبسها عمامة كعمامة القاضي والفقيه والجندي ، وتمسك سيفا مسلولا معها . فتأتي الى الزوج تباغت السيف منها ، ويضربها ببطنه على رأسها ثلاث ضربات ، وكل هذا فعل مذموم ملعون فاعله ، ... وأعظم من هذا انه اذا دخل البيت ، قامت أم الزوج ، فتشحت رجليها مع صدغي الباب ، أي عضادتيه ، ولا تمكن الزوجين من الدخول إلا بعد انحنائهما من تحت رجليها ، فإذا استقرا في البيت تطلع النساء الأجانب عليهما من الكوات ، وجلسن يرقبن أحوالهما الى الصبح . فان لم يسمع لهما صوت ، طرقن الباب عليهما ، وحركن عزمهما . هذا وقد علمن الزوجة الممانعة ، وحرضنها على عدم المضاجعة ، وألبسنها سروالا عقدن عليه كذا وكذا عقدة . وماذا عسى أن أصف من الاحوال الخبيثة التنيعة ، المباينة للدين والشريعة ؟! والعجب كل العجب من بعض العلماء كيف يعلم هذه الامور ولا ينكرها ، ولا يبرهن على السنة ولا يشهرها ، بل ربما يبعث زوجته لحضور هذا المجلس الأثيم . الموجب للوزر العظيم ...

وبعض الناس يقدم بدعة قبيحة جدا ، ويصنع لعرسه مرسحا . وفيه منكرات كثيرة من إضاعة الاموال ، فإنه يحتاج فيه الى بذل مال كثير في شراء الزيت وأجرة المغنين ، وينفق فيه اختلاط الرجال بالنساء ، وسماع الدف المصنج والغناء ، والفحش والبذاءة والخنا ، وتشبه الرجال بالنسوة ، وكثرة الضحك الناشئة عن الغفلة والقسوة ، وترك الصلوات والاستهزاء بالدين ، والتسحر الزائد بمحاكاة كلام العلماء والخطباء ، وكشف العورة ، وأشياء نسأل الله العافية منها بمنه وكرمه ، مما يفضي الى الكفر ، فربما يلبس المضحك زي الكفار . ويستهزىء بملابس العلماء الاخيار ، ومن استهزأ بالدين وأهله كفر . وأنواع الكفر كثيرة لا تكاد تحصر ... واختلفوا أيضا فيما لو حضر جماعة وجلس أحدهم على مرتفع ، تشبها بالمذكر أو العالم أو القاضي ، فسألوه المسائل وضحكوا ، وضربوا بالمخراق ، قال بعضهم : يكفروا . وكذا لو تشبه بالمعلم . وأخذ خشبه ، وجلس القوم حوله كالصبيان ، وضحكوا أو استهزؤوا به . وهاتان المسألتان ونظائرهما يتفقان في المراسح كثيرا . وفي هذا القدر كفاية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة في النص :

لهذا النص قيمة أدبيه كبيرة فهو يصوّر بعض الاحوال الدينية وبعض العادات والتقاليد الاجتماعية في القرن العاشر ويقدّم لنا صورا نجهلها عن تلك العصر .

وكاتبه شيخ متصوف صادق العقيدة متزمّت يريد المحافظة على أوامر الدين كما كانت مطبّقة زمن الرسول عليه الصلاة والسلام . وهو انساني الشعور يعطف على الفقراء ويرى أنهم أولى بالإطعام والإكرام في الحفلات من الاغنياء القادرين . ويظهر أنه كان بطبعه حريصا يكره التبذير فهو يبدي كرهه واشمئزازه منه في عده مناسبات .

ويظهر من النص ان أهل القرن العاشر الهجري الذي كتب خلاله هذا النص كانوا أكثر حرصا على العمل بالعادات المتبعة منهم على تطبيق أوامر الشرع الحنيف نصا وروحا كما كانت زمن النبي الكريم وكما يريد الشيخ علوان ، ومن هنا كان هذا النقد الشديد من الشيخ لمجتمعه في مناسبة هي أبهج مناسبة في حياة الزوج والزوجة وأسرتيهما .

والشيخ يتحدث في نصه هذا حديث المصلح الديني الاجتماعي الذي لا يجاري عصره قيد شعرة وينوخى المثل الاعلى الديني الخلقي كما يراه هو ، وينقد العلماء الذين يسكتون على عادات عصره التي يعدّها مُنْكَرات ويعتمد في بيان تحريمها على الاحاديث النبوية .

وأكثر ما أثار اهتمامنا في هذا النص حديثه عن (المسحّ) (المسرح بلغتنا اليوم) وبسبب من هذا الحديث الموجز ، أنه كان يقام أحيانا في بيت العرس ، ويكلف نفقات طائلة . ويسعى فيه المغنون والمهمّ فيه أكثر من الغناء هو قيام حماعة باضحاك الناس عن طريق التمثيل — الذي لا يسميه هو تمثيلا وانما يسميه تسخّراً — وذلك بتقليد الكفار أو العلماء أو القضاة أو المعلمين فيأخذ أحدهم دور المعلم أو القاضي ويأخذ الآخرون دور التلاميذ أو المتحاكمين والشهود ويُضحكون الناس بذلك . وهو يعدّه بدعة ومنكرا ؛ ولكنّ حديثه عنه يدلّ على أن عصره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد عرفه كما عُرف في أوروبا حينئذ ، ومن الحق أن نقول إن بوادر تمثيلية قد ظهرت منذ القرن السادس الهجري في البلاد العربية وتعهّد إرهاصا بالمسرح . ومنها خيال الظلّ ــ وقره كوز الذي شاع في العهد العثماني ــ ولكنها في نصّ الشيخ علوان قد بدت لنا في زي قريب من النمثيل الذي نعرفه اليوم .

وقد رأينا الشيخ علوان ينقد صنع المرسح ونفقته الغالية واختلاط الرجال والنساء فيه والضحك واللهو بتقليد الكفار أو المعلمين أو العلماء أو القضاة .

ويصف الكاتب عادات عصره في الزواج وصفا دقيقا يرفقه بنقدها الديني الخلقي . ومما ينقده :

أ ــ اهتمام الزوج حين اختيار الزوجة بالمال أكثر من اهتمامه بالدين والخلق .

ب ــ العناية بالمظاهر والتباهي بالغنى والترف كارسال الطعام واللحم وكتابة عقد الزواج على الحرير وتقديم أهل الزوج رؤوس الغنم واقامة أهل الزوجه الولائم الفخمة ، ونقد الرياء والنفاق وتحمّل ما فوق الطاقة . وحوار طرفي الزوج والزوجة وجدالهما حول ما هو مقرّر معروف بن الناس وبينهما . وعادة الشاباش (النقوط) وخداع من سماه بالشرفيّ في التظاهر بهبه المال الكثير لخداع الآخرين ، ونقد حمل الشموع في الطريق الى الحمّام ومنه الى البيت ، والهيللة والصياح في الطرقات أثناء الزفة ، ونقد عادة الختم التي نراه يستغفر الله منها لأنّه فعلها كغيره .

جـ ــ نقد ظهور النساء سافرات متبرّجات أمام الزوج وبعض أقربائه الرجال في ليلة العرس ، ونقد تخفيف الحواجب والوشم اللذين يخالفان الشرع ، وهو يبيّن خلال ذلك حكم الشرع في تحريم تحبير الخدين والخضاب بالسواد وتطريف الاصابع ، على الخلّبة ، وعلى المتزوجة بعبر إذن زوجها .

د ــ نقد الشربوش (وكان يسمى أيضا المقنزع وهو لباس للمرأة حينئذ كالطربوش) لعدم استعماله زمن الرسول ، ونقد عاده تغبير العروس ثيابها ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليست العمامة كالرجل . وحملها السيف الى الزوج لضربها به صفحا عدة مرات .

هـ ـ نقد مرور الزوج والزوجة من بين رجلي أمّه الى غرفتهما ليلة الزفاف .

و ـ نقد تطلع النساء الى رؤية ما يجري بين الزوج والزوجة في غرفتهما ، ونقد تعليمها ممانعته للحصول على بعض طلباتها منه .

ونلاحظ على نقد الشيخ علوان أنّه جِدّي صارم لا يسمح بأي نوع من اللهو والتسلية ، وذلك إنْ أطاقه بعض الناس فإنّ أكثر الناس لا يطيقونه . فلا بد من استجمام النفس ببعض الضحك واللهو كما يقول الجاحظ . ونلاحظ أن تفسيره لبعض العادات كعادة النباش ليس صحيحا فهذه العاده ليست لأخذ بعض الطعام من المدعوّين وانما هي دين اجتماعي على الزوج لأصدقائه وأصدقاء أسرته يستعين به على نفقات العرس ويردّه اليهم حين يتزوج أحد أبنائهم . ولا تزال هذه العاده قائمه الى اليوم معروفة بأنها دين . ويسجّل في بعض القرى كلّ ما يقدمه المدعوّون ليُرَدّ اليهم في مناسبات مشابهة .

ونلاحظ على النص أنه حيّ جذاب يُعنَى بالتفاصيل ، ولكنه أحيانا قليل الوضوح ضعيف التراكيب كقوله في أوله « ودلك أن الشيطان لعنه الله كما كان جالسا على الصراط المستقيم ، والنكاح منه » فهو يريد ان الشيطان يقعد للناس على الصراط المستقيم ليضلهم عنه وان النكاح سنة من سنن الصراط المستقيم (بخلاف الزنى) .

وفي النص بعض الخطأ النحوي واللغوي كالزغاليط مكان الزغاريد والعريس مكان العروس للرجل . ويحييهم مكان يحاييهم . وكقوله : « قال بعضهم : بكفروا » . والصواب يكفرون وقد أورد الكلمة بصيغتها العامية . وأسلوبه في جملته طلق حر ، ولكنه قد يلجأ الى السجع حين يجد أمامه مجالا له كقوله : « ورائحه الطيب منها فائحه . وعبها محدّقة اليه لامحه ، وزينها بادية لائحة ... » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ج ـ النثر الادبي

مثال من نثـر المقامات :

مقامة للخفاجي في ذم قاض بالقسطنطينية وابنه :

« ... فقلت في وصفه مقامة ، هذه صورتها :

صـورة المقامـة :

« اللهم اني أعوذ بك من الخبث والخبائث ، وألوذ بك يا نور النور اذا دجت ظلمات الحوادث . يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ، ويتبين كل منقوص حتى يفرّ منه أبوه وأخوه .

فإنّه مما صبّ من المصائب ، أنْ حمل على كاهل الدهر عيبة المعائب ، نسخة القبائح ، مسوّده الفحش والفضائح ، جريدة العيوب ، نمثال السيئات والذنوب ، إكسير الفساد ، وشاتة الأعداء والحساد . أنموذج الهموم ، أظلم من ليل المرض والغموم ، قحط الرجال ، قائد جيش الدجال ، قبيح الفعل والقول . اذا اعتذر عن إساءته عسل الغائط بالبول ، لئيم غيرُ مَلوم . أجْوَرُ من قاضي سدوم ، فصَدارتُه هجوُ الزمان ، وإظهارٌ لعداوة الأحرار والاعيان . فلو لم يُخْسَف بأهاليه ، لما ارتفعت أسافله على أعاليه .

كالبحر ترسب في أسافله ... درر وتعلو فوقه جِيَفُه[1]

جُعَلٌ في بستان مُزْبَل ، اذا أثمرت البساتين حنظَلْ . إن لاح انسان جهل فهو لَعينُه ، أو ابليس تلبيس فذاك أستاذه وقرينه . فلو عاين أحمد[2] خداعه لحيّاه وأنشد :

فلمّا نظرتُ الى عقله ... رأيت النُّهى كلَّها في الخُصَى

ريقه الزقوم ، وأنفاسه السموم فهو لعين الدهر فذى ، لا ينطق بغير فحش وأذى ، الجهل رداؤه ، والجُذام حِليتُه وبهاؤه . والجنون مَجِنّة له من الاعداء ،

---

(١) البيت لابن الرومي .

(٢) يريد ابا الطيب المتنبي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فذاته المكروهة عينُ السوداء • ليس في خلقه من الحكم والاعراض ، إلاّ أن تقف الاطباء على ما جُهل من الأمراض •

وتتضح به دقائق النشريح ، ويكثر رائه من الاستغاثة والتسبيح • تخرّق منه الجسد ، فكلّه عيون تنظر من الحسد ، عِرضه دنِس مشقّق ، ووجهه كقرطاس الرماة مخرّق ، أقبحُ من عسر بعد يسر ، لا يعرف أنّه إنسان إلاّ أنّه في خُسر • كلّه مُنتنِ الا فاه فاستثنه بِخَلا ، وكلّه بلاء لو سئل عنه ابليس قال بلى • يغلب بسلاح الوفاحة في المبارزه ، وبظن ان الرشوه مباحة لانها تسمى جائزة • ويزعم لنفوذ أمره في الانام ، أن القول ما قالت جُذام لا ما قالت حَذام ، أشأم من طوبس ، وأثقل في السمع من لبس ، ومعنى يحمل لحية التيس •

يا عينَ الشؤوم ، وخليفة البُوم ، وسَلْحه الزمان ، ونجاسة الديوان • ألم يدْرِ من صدّرك ، ولم يخش عُجَرك وبُجَرك ، ان زوال الدول باصطناع السَّفَل •

ومن يكن الغراب له دليلا يمرّ به على جيف الكلاب

يا خيبة الامل ، ومجمع السفل ، ونتيجة السقم ، وضنء اليتم والعقم ، وعدوّ الادب ، وأسود اللقب ، اما اسنحى زمان حلّ في صدره الخُصى ، وأصبح لقدر العلم والمَعالي مُرْخصا ، مادِرٌ لديه حاتِم ، والحجّاج أعدلُ حاكم •

لو كان يدري جدّه أنّه يخرج من إحليله لاختصى • قربُه أقبحُ الحِرمان ، وبعده ألذّ من وصل الحور الحسان • قد نجّس الارض نجاسة لا يُطهّرها الطوفان ، قرّة عين أبي جهل فهو ينشد له بكل لسان :

نعلاى أطهر منه والكلب أطهرُ مني

لا يهتدي الى صواب ، حتى ينسيب الغراب ، أو يستضيء شطانٌ بشهاب ، سفيهُ الذمّ حِلبةٌ فيه ، وكلّ اناء يرشح بما فيه • أسجدُ من هُدْهُد في خلوته ، خبيرٌ بأن بجني العصا لسائر خدَمته • نحوى كم نصب وجَرّ • وداوم على مذاكرة متسقة من الذكر • رئيس لبس له صيت وسعة ، لم يبِت الا وفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دِهليزه شمعة • أنف بالعُجْب في السماء ، واستٌ من الأُبْنة في الماء • كأنه فرعون الا انه ، من جانب الوجْعاء ، ذو الأوتاد ، كذاب فانظر وجهه وسواده ، كأنما ألبس الدين به حِدادَه • عار على السلَف والخلَف ، أكذب ما يكون اذا حلَف ، حُرّاقة فساد ، فدْح شرر شرّه فساد ، فإن كان أصلُه النار فهذا الخلَف رماد • مفلس من دينه وعقله ، يقول ابليس انما تركت السجود لآدم ، لأنّه من نسله • اقبح من النّقَم ، وأسوأ من زوال النعم • أزنى من ظلمة ، وأمرٌّ من غُسّة على غسّة• لم يزل يبدي بانتقاصه الأفاضلَ غرضا،لأنّه من قوم (في قلوبهم مَرَضٌ فزادهم الله مرَضا) • لا خير فيه إلا أنّه لا يأثم له مُعْتاب ، بل يحمَد ويُجازى بجزيل الثواب • لم يُثْلَب ، وهو بهُجر القول مُغْرَم صب ، ومن ذا يَعَضّ الكلب إذا عضّه الكلب •

إنْ تهجُه تهجُ مَنْ في الأرض قاطبةً
لأنّه مِن مِياه الخَلْق قد جُمعا

فإنْ كان ذمُّ الناس جُلَّ مُناه ، فما الناس إلاّ هو لا سواه • لم تَبْقِه لصِحه مراجه السنون ، وإنّما ذلك لأنّه عافته المنون •

وقد رفع عن هذه الامة المَسْخ فما بالُه عاد ممسوخا ، وتناهى السَّمْخ للشرع فما بالُه عاد بصدارها ... ؟ •

قاض لم يدر حُجة فما أحوجه إلى العلم ، وجودُه غلط في صحف الدهر مفتقر الى المحو والحك •

نوّر به المانَويه الكلام ، على أنّ مُوجد النرّ هو الظلام ، والتناسخيُّ البيان على أنّ روح الحيوان حل في الإنسان ، فلو لم ينفرض نسلُ آدم ، لما حُكّم هذا القردُ في العالَم •

فإنْ لقّبوه بالرئيس سفاهةً
فإنّ الخُصَى تدعى رئيسا من الأعضا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واذا كان مِن الدين ، إعلانُ النصيحة للمسلمين فعليك بالرأي الأسد : فرَّ من المَجذوم فرارَك مِن الأسد ، لأنّه محروم مجذوم ، ليس فيه من صفات العلماء إلاّ أنّ لحمَه مسموم . حمى الله مِزاج العصر من ساري مَرَضه ، وصان جوهر هذا الدهر من عَرَضه ، وأنار بالزوال كُسوفه ، وصرف بيد نَقّاد المنية زُيوفه . والسلام .

« الريحانة ج٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٩ »

كلمة موجزة في هذا النص :

يتناول الخفاجي خصمه القاضي في هذه المقامة تناول الحاقد الناقم فلا يترك عيبا من العيوب دون أن يلصقه به . فهو من حيث الأوصافُ الجسدية قبيح مجذوم ومن حيث الاوصاف الخلقية حقير لئيم زنيم متعدد الآباء مصاب بالأُبْنة ، يسيء إلى الدهر أنه موجود فيه والى الحكم أنه يتصدره وقد ورّث حقارته لابنه .

والكاتب يُلحّ على الصفات السيئة فه فستعمل جملا كثيرة مترادفة أو متقاربة المعنى ويستعين بالشعر ينثره أو يستشهد به ويأتي بكثير من الأمثال والاقوال المأثورة العربية يُوالي بينها لِيتبثّت في الاذهان مخازيه .

ويعتمد الصور البيانية يشخّص بها مساوئه ويمعن في الصناعة البديعية من جناس وطباق وسجع ...

وندرك من قراءتنا هذه المقامه سعه ثقافته الادبيه ومدى غزارته اللغوية ولكنها خالية من الخيال القصصي تعتمد أشد الاعتماد على التصوير البياني .

والكاتب شديد السخرية قاسي النقمة بجعل مَهجوّه أضحوكة ولا يكتفي بفن التصوير البياني ، بل يضيف الى ذلك الالفاظ البذيئة والمعاني الفاحشة فيحطّ من شأن خصمه ، بل يحطّ من شأن العصر الذي سمح له ولابنه بان يتصدرا قاضيين بين الناس في عاصمة الدولة .

وهذا الاسلوب القاسي لا يعطينا صورة مشرقة مرضية عن خلق الكاتب ، بل صورة مخيفة تتخلّله معها شتّاماً فحّاشاً بذيء اللسان فاقد الرحمه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه بعض النظرات التفصيلية في النص مع شواهد منه تؤيدها .

١ ــ يستعيذ الخفاجي بالله مــن القاضي المذموم دون ان يُصرّح باسمه وذلك للتشويق ، ويكثر من الجمل المرادفة في هذا السبيل لهذه الغاية .

٢ ــ يبالغ في التشنيع عليه حتى يبلغ درجة الإفحاش في الهجاء : « اذا اعتذر عن اساءته يغسل الغائط بالبول » ، ويصمه بأقبح الصفات الخلُقية الشاذة جاريا فيها مجرى الرمز حينا : « لم يبت الا وفي دهليزه شمعة » « كأنه فرعون الا انه من جانب الوجعاء ذو الاوتاد » ، ومجرى التصريح حينا آخر : « واست" من الأبنة في الماء » . ويستخدم بعض صور التحقير أحيانا أخرى : « معنى لحية التيس » . أو التورية : « قاض لم يدر حجة » « فما أحوجه الى الصك » . أو الكناية « لو كان يدري جدّه أنّه يخرج من إحليله لاختصى ... » .

٣ ــ وقد يستخدم لتحقيره الأمثال القديمة « أشأم من طويس » « أثقل في السمع من ليس » وشعر السابقين : « لم تبقه لصحة مزاجه السنون ، وانما ذلك لانه عافته المنون » فهو ينظر الى قول المتنبي :

ما يقبــض الموتُ نفْســاً من نفوســهمُ
إلاّ وفــي يــده مــــن تنهــا عُــودُ

وقد يأتي لذلك بشعر نُرجّح أنــه من نظمه كقــوله : ويجعل أبا جهل ينشــد :

« نعــلاي أطهــرُ منــه والكلبُ أطهــرُ مني »

أو قوله :

« إنْ تهجُه بهــجُ مَن في الارض فاطبه
لأنّــه مــن ميــاه الخلــق قــد جُمِعــا »

فقد جعله ضعيف الســب مجهول الاب ينتمي الى الناس جميعا لســوء أخلاق أمه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ــ وقد يستمد لذلك من التاريخ ، كإشارته إلى قاضي سدوم ليجعل المهجوّ شؤما على الناس وعلى الدولة . أو من الأديان كقوله : « نوّر به المانويةُ الكلام على أن موجد الشر هو الظلام » وذلك لسواد لون المهجو . وكقوله : « والتناسخي البيان على أن روح الحيوان تحل في الانسان » وذلك ليخلع عليه صفة الحيوانية ؛ أو من الحديث النبوي كقوله : « لأنه محروم مجذوم ... » فهو مقتبس من الحديث : (فرّ من المجذوم فرارك من الأسد) .

٥ ــ ونظن أنه جاء في هجائه بمعنى جديد قديم هو قوله : « فان كان دم الناس جلّ مناه ، فما الناس الا هو لا سواه » فقد جعله من نسل الناس جميعا ؛ ولكنه ربما نظر في ذلك الى قول ابن الرومي في أحد مهجوّيه : « واحد الأم خلفة الآباء » .

٦ ــ لا يكتفي بهجائه ، بل يهجو معه ابنه : « رماد من نار » ، ولا خير فيه الا أن مغتابه لا يأثم بل يثاب » .

٧ ــ يحاكي في مقامته هذه ابن زيدون في رسالته الهزليه .

مثال من الوصف المعنوي :

كتب الطالوي[1] الى صديق رسالة في التشوق وبيان فرحته بوصول رسالة منه اليه منها :

« أمّا الشوقُ ففد اشتعل ضِراما وكاد عذابُه أن يكون غَراما حتى قال فم الجفن بلسان الدمع (يا نارُ كوني برْدا وسلاما) ، (فإني ألقي اليّ كتابٌ كريم) فاح منه شميم عَرار نجد . وما بعد العشيّة مِن تسميم ، فنمتعت بما هو أحلى من الوصل بعد الهجر ومن الأمن بعد الخوف ، ومن البُرْءِ بعد السقم ، ولم أدر أطيفُ منام ، أو زائر أحلام ، أم قُرْبُ نوى بعد البعاد ، أم حبيبٌ يأتي بلا مبعاد » .

« خلاصة الاثر ج٢ : ١٧٣ ــ ١٨٠ »

---

(١) ولد الطالوي سنة ٩٥٠ هـ وتوفي سنة ١٠١٤ هـ وكان قبيل وفاته يقلب في كتبه ويقول :

أقلبها حفظا لها وصيانة ... فما ليت شعري من يقلبها بعدي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة في النص

يبدي الكاتب في هذا النص شوقه الى صديق وصل اليه منه كتاب سُرّ به ولكنه أثار عاطفة الشوق فيه .

ولغة الكاتب في هذا النص شعرية لانه شاعر مجيد في عصره قبل أن يكون كاتبا وهو يقتبس كثيرا من القرآن : وكاد عذابه يكون (غراما) (يا نار كوني بردا وسلاما) (فاني ألقي اليّ كتاب كريم) . ثم هو ينثر بعض أبيات الشعر كهذا البيت :

تمتّعْ من شميم عَرار نجد فما بعد العشيّة من عرارِ

ثم هو يضمن بعض الكلام المأثور لأدباء قبله :

« أحلى من الوصل بعد الهجر ، ومن الامن بعد الخوف ، ومن البرء بعد السقم » . ويشبه في ذلك أمرا معنويا بأمور معنوية ثم انه يعتمد السجع والصناعة البيانية والبديعية له أسلوبا ، ويُجسّم المعنويات : « أما الشوق فقد اتسعل ضراما ، ويُشخّص أجزاء الجسم « حتى قال فم الجفن بلسان الدمع » .

ومن طباقاته الجميلة : الوصل بعد الهجر والأمن بعد الخوف وبهذه الطباقات يزيد من إبراز المعنى الذي يريده وهو كثرة فرحه بوصول كتاب صديقه اليه .

ويُحسن تأليف ذلك كلّه في انسجام جميل ولفظ عذب وأداءٌ لطيف يحسب بُعجب القارىء ويدُلّ على موهبة أدبية أصيلة في نفسه وثقافة واسعة تمدّه بالمعاني والصور والاقتباسات المناسبة .

مثال من الرسائل الاخوانية ـ جواب البوريني(١) على صديق يعاتبه :

---

(١) البوريني (٩٦٣ ـ ١٠٢٤ هـ) : هو الشيخ حسن بن محمد بن محمد الصفوري الاصل الدمشقي الملقب بدر الدين البوريني اثنى عليه كثير من المؤرخين والادباء ووصف بانه فرد وفنه في الفنون كلها . عرف بكثرة الحفظ في العلوم والآداب وكان حسن المنادمة . له تآليف كثيرة في التاريخ والادب من اشهرها شرح ديوان ابن الفارض ؛ وله ديوان شعر . رحل من دمشق حين حصل فيها قحط الى بيت المقدس مع اميه ثم غادر الى دمشق . واخذ العلم والادب عن فضلاء عصره كشيخ =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من رسائل البوريني هذه الرسالة أجاب بها على رسالة صديق يعاتبه ويذكّره تواضع الكاس في أيام الإيناس :

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى ... دمعان في الأجفان يزدحمان

ما أنصفنني الحادثات رميننـي ... بسودّ عَيْن وليس لي فلبان

وردت رسالتك الآمره بالطيش ، المُحسّنة للانطلاق الى نهب طِيب العيش ، فقلت لها أهلا وسهلا ومرحبا بلطف حبيب زار عن غير موعد .

على أنها وردت رامزه الى اغفله عن الاخوان مشيرة الى نسيان الاحبة والخلان فكَلاّ والله ما تبعت في نسيان الاحبة الهوى ، وبالله إني صاحبكم وما ضلّ صاحبكم وما غوى :

تُجِنّونـي ذنوبـا ما جنتْها ... يداي ولا أمـرت ولا نهيتُ

ومع دلك :

فلـو كـان هدا موضـعَ العب لاستـفى
فـؤادي ولكـنْ للعتـاب مَواضـعُ

ولئن حصل في مدة الأجَل انصاح لَنعسلنّ بفول الصلاح :

= الاسلام البدر الغزي وابي الفداء اسماعيل النابلسي ومحمد بن المنقار .. وساد على اهل عصره ودرّس في عدة مدارس وفي الجامع الاموي وجامع السليمانية ، وتعلم اللغة الفارسية ، كبيرا ، من الحافظ الحسين التبريزي المعروف بابن الكربلالي . وفي ذلك يقول :

تعلمـت لفـظ الاعجمـي وانـنـي ... من العَـرَب العـرباء لا اتكمّ
وماكان قصدي غيرَ صون حديثكم ... اذا صرت من شـوقي بـه اترنّم
وان كنت بين المعجمين فمُعرب ... وان كنت بين المُعربين فمعجِم
فاغدو بأشواقـي اليـكم مترجما ... وسـرّكم في خاطـري لمس يُعلم

وتعلم في آخر الامر التركيه ولم نجِدها اجادته الفارسية .

« عن خلاصة الاثر ج ٢ : ٥١ ــ ٩٢ »

لزمتْ بيني كلزوم البنا للفعل والحرف على الأصل

واستوحشت نفسيَ حتى لفدْ تنفر لو أمكن من ظلّي

وهذا مجمل يعسر تفصيله وحكم يصعب تعليله . وأما ما أشرتم اليه بما قال أبو نواس والعمل بقوله من ارتضاع الكاس فمقبول لو كانت منازل الشباب آهلة ، وأوفان الهوى لصفاء العيش قابلة . ولكنْ بعد نزول الشيب ، والإنذار من عالم الغيب . لا مجالَ لمصافحة الدِّنان ، ولو أنها بشافهة الصِّفاح والسنان :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطلُه
وعُرِّي أفراسُ الصِّبا ورواحلُه

نعم قد جُلْتُ في أيام الشباب بميدان الصِّبا . فما عثر طرفي في قضاء وطَرٍ ولا كبا :

ولقد نهزتُ مع الغواة بدلوهمْ
وأستُ سرْحَ الطَّرف حيث أساموا

وبلغت ما بلَغ امرؤٌ بشبابه
فإذا عُصارة كلِّ ذاكَ أثام

وأما الآن فإنّي أقول :

فما شافني ذكرى حبيب ومنزلٍ
ولا راقني للساجعات نرنّمُ

ولا أطربَ الحادي بنرجيعِ لحنِه
ولا فاح مِن نشر الرياض مُشمّمُ

ولا يحنجْ ببالك أنّ هذا باللسان . من غير مطابقه الجَنان ، فإنّي أقسم بالوفا والكرم ، والبيت والحَرَم ، أنّ ظاهر هذا الأمر ، وباطنَه سيّان ، ولو اطّلعتَ على الضمير لازددتَ علما على ما نطق به اللسان ، ولو كنتَ مائلاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى ما أشرتَ إليه ، وعوّلتَ في عباراتك عليه ، ما كنتُ أجد مثلك من نديم ، كفءٍ كريم ، وخاطرُه سليم ، يفهم الكلام بالإشارة ، ويستغني عن مفهوم العبارة :

إنْ كان لا بدّ من عيش ومِن سَمَرٍ
فحيثُ آمَنُ مِن خلّي ويأمنُني

نَعَمْ إنْ مالت نفسُك إلى مجاذَبة أطراف الآداب ، والمحادثة عمّا مضى من وقائع الأحباب ، فانك والله أعزّ الاخوان ، وإنسانُ عين الخِلاّن ، ما رأينا منك سوى ما يسُرّ القلوب ، ويكون عينَ المقصود والمطلوب ، فأنت المقصود يقول الشاعر :

برُوحي من نادمتُه فوجدتُه
أرقّ من الشكوى وأصفى من الدمع
يوافقُني في الجِدّ والهزلِ دائما
فينظُرُ مِن عيني ويسمعُ مِن سَمْعي

هذا هو الجواب مع الاختصار وعند مِثْلكم يُقْبَل الاعتذار » .

« عن خلاصة الأثر للمحبي ج٢ ، ص ٥١ ــ ٦٢ »

كلمة في هذا النص :

هذا النص بديع صادق العاطفة يدلّ على تجربة حقيقية ويصف إقلاع الكاتب عن طيش الصبا ، بعد أن رتع فيه ، وتوبته عن اللهو والشرب . وهو يعتذر فيه لصديق أرسل اليه يعاتبه على هجره رفاقَ اللهو ناسباً انقطاعه عنهم الى الغدر ، ويبيّن له أن توبته توبة صحيحة ، وانه يقول ما يحس به في قلبه وما يصمّم عليه من عدم الرجوع الى الضلال والغي .

ويرقّ لصديقه مع قوة تصميمه على التوبه ، فيقول له : لو أنّه لا يزال يلهو لما اختار غيره لرفقته صديقا كريما . فإن رأى هذا الصديق أن يكون رفيقا منادما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نه في العلوم والآداب ، دون اللهو والشراب . كان في ذلك سرورُه وسعادته ، ويتوقّع ان صديقاً مثل صديقه يقبَلَ عذره ويقنع بجوابه .

هذا هو ملخص المضمون . وأما الشكل فقد جمع فيه الكاتب بين النثر والشعر ، ونثر الشعر ، واقتبس من القرآن ، وضمّن أقوال بعض الاقدمين والتزم الصناعه البديعية مع السهولة وحسن الانسجام وأجاد التعبير عن المعاني المناسبة وأحسن اختيار الصور المعبّرة .

وبدا لنا الكاتب الشاعر غزير الأدب واسع الثقافة جواد القريحة لبق التناول ، لم يسنجب لنداء صديقه في نهب الملذّات ؛ ولكنه صدّه عنه برفق ونصحه بلطف وإيناس . ودل بذلك كلّه على أنه يعيش حقّاً تجربته الجديدة المناسبة لسنّه ولشعوره باقتراب أجله ، وانه لا ينافق في دلك ولا يُوارب .

وكان سهل الأداء مأنوس الالفاظ لطيف الروح . وقد استهلّ رسالته الجوابية ببيتين من الشعر جاء فيهما بمعنى بديع هو أنّ قلبه لا يقوى على فراق حبيبين في آن واحد : الحبيبة والشبيبة .

وقد التزم السجع وأولى الصناعة اهتماما كبيرا ولكنه لم يجُر على المعنى وجمال الأداء ، وقوة التأثير .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاتمة : تجمل خصائص النثر خلال العهد العثماني بعد دراسة النصوص السابقة :

عرفت في العهد العثماني أنواع النثر الثلاثة : الديواني ، والعلمي التأليفي ، والنثر الأدبي • واقتصرت الخطابة على الخطب الدينية المنقولة أو المحفوظة عن الأقدمين •

وكان النثر الديواني أقلّ مقدارا وحظّا من النوعين الآخرين فقد كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية الأولى وكانت العربية إلى جانبها يكتب بها العرب أو يكتب بها الى العرب •

وكان الاتراك يتعلّمون العربية لانها لغة الدين والثقافة وقسم كبير من الادب ، الى جانب التركية والفارسية • وكان كثير من الادباء العرب يتعلمون اللغات الثلاث •

وقد كتب كثير من علماء الترك والاعاجم وأدبائهم بالعربية نصوصا أدبية ، منها مقامات ، ونظموا شعرا • ولم يظهر البغض للعرب وللثقافة العربية لدى بعض الأتراك إلاّ في أواخر العهد العثماني زمن الاتحاديين حين نشأت فكرة القوميات وتعصب هؤلاء لقوميتهم وحاولوا محو القوميات الاخرى •

وقد غلبت الثقافة والافكار الدينية في هذا العهد على غيرها من أنواع العلوم والمعارف ، وسادت الروح الصوفية بين الناس جميعا ، ولم يكن أحد من المسلمين تقريبا لا ينتسب الى طريقة من الطرق الصوفية السائدة •

وكان التعصب المذهبي بين السنة والشيعة واضحا بعثه وأذكاه الحرب التي كانت متواصلة بين الاتراك والفرس وتعصب الفريقين لمذهبيهما ذلك التعصب الذي خلقته السياسة •

وقد التزم الكتاب ، في أنواع الكتابة الثلاثة التقليد ، لجمود الحياة نفسها وعدم حدوث ثورات على الواقع السياسي والاجتماعي السيّء إلا ثورات موقّتة تشبّ كالبرق ثم لا تلبث أن تنطفىء • والثورة الوحيدة على الواقع الديني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاجتماعي التي قامت واستمرّت برغم ما قام في وجهها من عقبات هي الثورة الوهابية الإصلاحية . وبؤسنا أننا لم نوفّيها حقّها من الدراسة لنعرف مدى ما كان لها من دور في الاحياء .

وكان لدى العرب إحساس مبهم بوجودهم القومي فكان أمراء الجزيرة العربيه وسكانها يسمون السلطان العثماني ملك الروم . لا ملك المسلمين . ولا ملك الترك والعرب ، ولكنهم كانوا رسميا وعمليا تابعين له .

وقد رأينا التقليد والصناعه يغلبان على النصوص الديوانية . ولكن أصحابها كانوا قادرين على التعبير عن المعاني التي كانوا يريدونها مع عدم خلوّ كتابتهم من الخطأ اللغوي والنحوي ومن بعض الركاكه ، وقد تفاوتوا في مقدرتهم الكتابية ولو اطلعنا على ما كتبه الشوكاني المؤلف الاديب في جواب إمام اليمن على السلطان وأمير مكة لرأينا أنه أصحّ لغة وأقوى أسلوبا من كاتب رسالة السلطان .

وكان التقليد والجمع غالبين على التأليف ، على أننا رأينا لدى بعض المؤلفين كالشيخ علوان الحمَوي ، نقدا اجتماعيا ينطلق فيه من روحه الصوفي الانساني المحافظ . وقد عرفنا من نصّه في النقد ان التمثيل كان معروفا في زمنه وربما كان قد عرف قبله بقليل في أواخر العهد المملوكي الثاني وقد رأيناه يبيّن فيه رأيه الديني الذي يقوم على أنّه حرام ، ويسمّيه تمسخُرا ، ويصف كيف كان يعرض بعض شؤون الحياه عرْضا ساخرا . وفي هذا العصر نرى كذلك عبد الوهاب الشعراني الصوفي ينقد الحكام وظلمهم وخروجهم على الشرع نقدا لطيفا تستتر فيه رسالة التصوف البناءة الهادفة الى اصلاح النفوس التي تصور الجانب الخيّر المشرق منه .

ونرى كذلك اهتمام بعض المؤلّفين كالغزي بتربية الناس على مراعاة الآداب العامة في المؤاكلة والعشرة ، استمراراً في الروح الحضارية العربية . ورأينا كيف نقد الخفاجي بعض الحكام والقضاة وصوّر بدء تفهقر المستوى العلمي والادبي في زمنه بسبب تولية الأمور غير أربابها الاكفاء .

وظهر لنا أن الغالب على الاسلوب في التأليف العلمي هو التحرر من الصناعة . إلاّ في مقدمات الكتب ، والاهتمام بوضوح المعاني وسهولة الأداء . وقد تبلغ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السهولة في الأداء والالفاظ حدّاً يقرب الكلام معه من العامية كما رأينا في نصّ الشيخ علوان .

وقد غلب التقليد والصناعة على النصوص الأدبية ولكنّ كتّابها كانوا يراعون الجمال والقوة في أدائها فقد رأينا أنّ مستوى مَقامات الحفاجي جيّد ، ولكنّها لم تكن تساوي مقامات الهمَذاني والحريري من حيث مستوى الفنّ القَصصي والتشويق . على أننا رأيناه يحسن استخدامها سلاحا في مهاجمة خصومه ونقد الحكام والأوضاع السياسية والعلمية والاجتماعية السائدة .

ونرى الكتاب في هذا العهد يهتمّون الى جانب كتابة الرسائل والمقامات بوصف الأشياء الصغيرة ، كوصف الشمعة للخفاجي في كتابه الريحانه ، ويمزجون بين النثر والشعر في الكتابة ويقتبسون معانيهم وصُوَرَهم من سابقيهم ، ولكنهم يستطيعون التعبير عن أحوالهم النفسية والاجتماعية .

ورأيناهم يجيدون التعبير عن المعنويات كوصف الشوق والشعور بالفرح لدى الطالوي ، وكالاعتذار والجواب على العتب والتعبير عن مشاعر الشيخوخة والتوبة لدى البوريني . وكلاهما قد جمع في كتابته بين النثر والشعر .

وقد رأينا في كتابات هؤلاء الأدباء جميع ألوان البديع من تورية وجناس وطباق واقتباس وتضمين أشرنا إليها في أماكنها حين أوردنا نصوصهم .

وننتهي من هذه الخلاصة إلى القول بأن نثر هذا العهد قد ضاهى بعضُه ولا سيما الأدبي منه نصوص السابقين في عهود الدول المتتابعة وضعف بعض منه ولم يسلم من الخطأ كبعض الكتابة الديوانية والتأليفية ، وانتقل بعضه الآخر من مجال الابتكار الى مجال الحفظ عن الأقدمين ، كالخطابة . وننتهي كذلك إلى أنّ ما حسُن منه قد خفّف من قتام الصورة التي كانت تنطبع في أذهاننا عن هذا العهد .